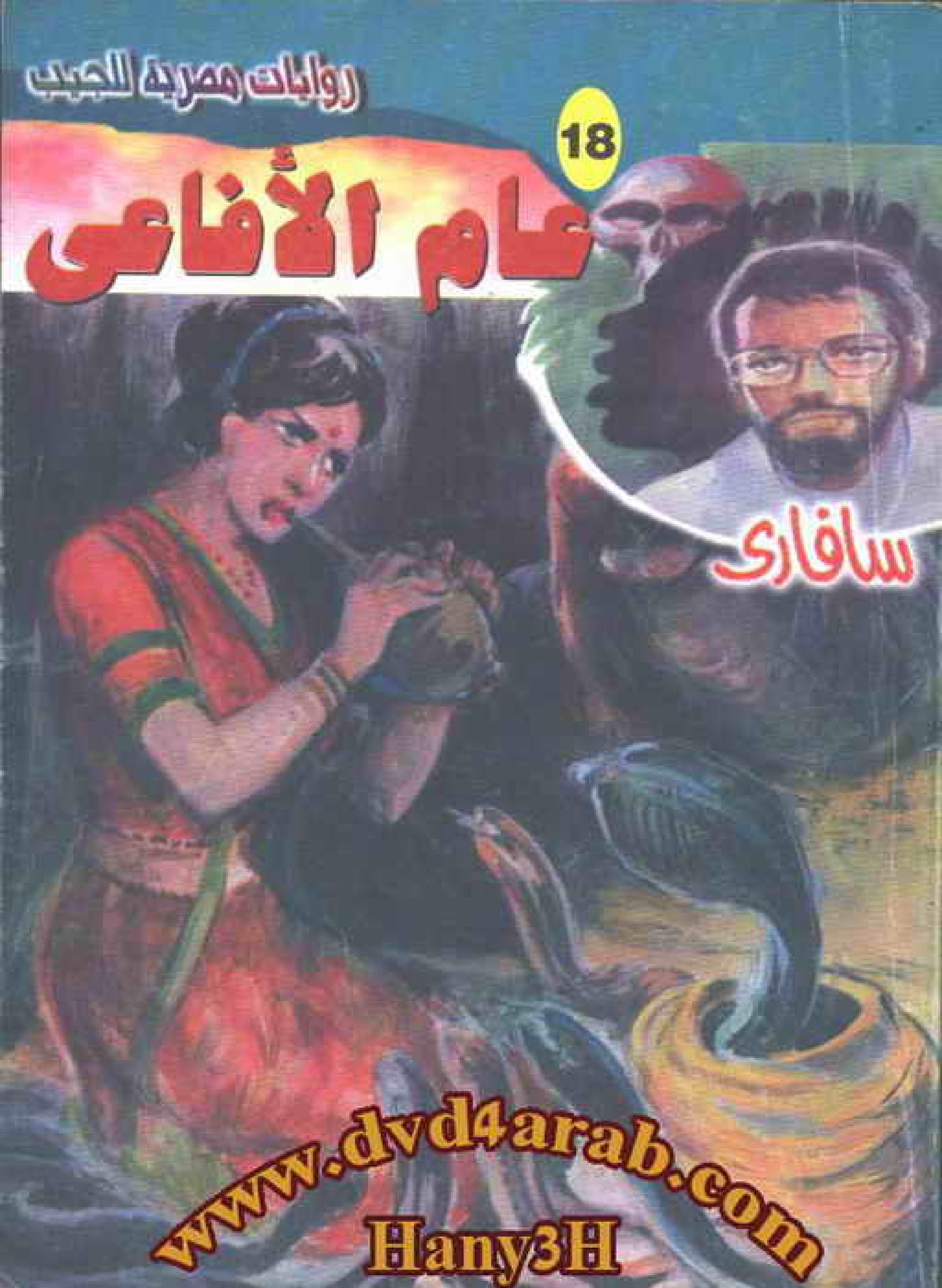

روايات مصرية للجيب
18
عام الأفاعى
سافارى
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ ـ العودة من الوطن ..

يطلقون عليه عام الأفاعى ..

لا أدرى السبب حقًّا لكنهم ـ على الأرجح ـ محقون .. إذ كيف يمكن للمرء أن يصف عام الأفاعى إلا بعام الأفاعى ؟

★ ★ ★

كنت فى تلك الآونة قد ظفرت أخيرًا بتلك العطلة التى طالما اشتهيتها ، والتى سمح لى فيها قياصرة (سافارى) بأن أقطع الوديان والغابات نحو أمى .. لقد قمت بما طلب منى وأكثر ، ولا مجال للجدل هنا .. حتى الطاغية المتجهم (باركر) لم يستطع إلا أنٍ يرسم شبح ابتسامة على وجهه .. ابتسامة مخيفة حقًّا ، كانت تملأ وجهه بالأخاديد توطئة لأن يتشقق نهائيًّا ويسقط وتتعرى جمجمته .. المهم أنه وافق ..

عاد (بسام) من (كينيا) بعد إنهاء مهمته ، وهى ـ على ما أعتقد ـ تتعلق بمرض الكالا آزار المخيف .. أقول : أعتقد لأن أحدًا لا يتطوع بتفسير شىء لك هنا .. التكتم بلا داع سياسة دائمة ، حتى لتشعر أحيانًا بأنه هدف فى حد ذاته ..

هكذا صار الفرار من حقى ، وودعت الجميع وتمنيت لهم المزيد من الأوبئة كى يقهروها ..

وأخيرًا أنا فى (شبرا) .. أخيرًا أشم رائحة الحبهان المنبعثة من أنفاس أمى وثيابها وكل شىء فى عالمها .. ما سر هذه الرائحة ؟ لا أعرف ؟ لكن قلبى ما زال ينتفض كلما شممت هذه الرائحة ، التى ارتبطت عندى منذ الطفولة بالأم .. كانت فى أحسن حال ، وكان وجهها يشع نورًا ، مما أكد لى أن مخاوفى على حق ، وأن ساعتها قريبة جدًّا .. هكذا تسير الأمور دائمًا .. هناك ذلك النوع من الصفاء الذى يبدو على وجوه من دنوا من لقاء خالقهم ، وهو ليس علامة مكتوبة فى كتب الطب ، لكنه شىء أعرفه بالسليقة والخبرة ، وقديمًا أطلقوا عليه (صحوة الموت) ..

استعذت بالله من خواطرى السوداء ورحت أقنعها بالشيء الذى جئت من (أنجلوانديرى) كى أقنعها به: أن لها ولدًا يحبها ..

كانت هناك جلسات مرحة كثيرة، وكثير من أطباق المحشو و(الممبار) والملوخية الخضراء، وغابات من قشور اللب، وعند العصر كنت أجلس معها على البساط القديم، فى الشرفة الخلفية التى تعلق بها حزم الثوم والبصل، نرمق الشارع، وتعد لى القهوة على السبرتاية، ثم تقلب الفنجان كى ترى مستقبلى .. عندها كنت أسائل نفسى: ما هذا الذى أفعله بنفسى حقًا؟ لماذا أترك كل شيء وأذهب حيث ذهبت، لأعيش بين وجوه غريبة مع مشاكل غريبة ولغات أغرب؟

فى ذلك اليوم قلبت الفنجان برهة ثم رفعته وراحت تتأمله .. كان هناك السائل الباقى فى القاع .. قطرات معدودة أبت أن تنسكب وكنت أعرف طريقة أمى فى التفكير:

- «هذا مال .. مال كثير فى الطريق إليك ..»

هكذا قالت لى مئات المرات منذ كان عمرى عشر سنوات، ولم تسأل نفسها قط لماذا يفشل الأمر كل مرة، أما هذا الظل القادم من بعيد فهو ...

- «رجل يرتدى أسود فى أسود يحمل لك هذا المال .. هلم .. هل تراه؟»

أعوذ بالله! لو صحت هذه النبوءة فإن من يجلب لى المال لن يكون سوى الشيطان ذاته، أو - على أفضل الظروف - زعيم المافيا .. لكننى أمط رأسى داخل الفنجان وأوافقها على كل حرف .. عزيزة ساذجة طيبة القلب ..

- «أراه .. أراه ..»

- «أنت لا تصدق .. هه؟»

- «بالعكس .. أراه بوضوح تام ..»

- «أما هذه ..»

الآن جاء دور العروس التى فى فنجان القهوة حاملة باقة الورد وهى - على الأرجح - بنت السلطان كذلك ..

ولا أدرى ماذا تفعله العروس وسط تنوة القهوة هذه ، ولاكيف لايتسخ ثوبها الأبيض الطويل ؟!

- « إنها تشبه (غادة) بنت خالتك .. »

آه .. فهمت .. ليست أمى بهذه السذاجة إذن .. إنها خطة مدبرة بعناية ، لكن السذاجة الحقيقية هى أن تبدو خطتك ساذجة !! قلت لأمى وأنا أتأمل الفتاة المذكورة :

- «ليست هى .. إنها شقراء وعيناها زرقاوان .. تبدو لى أجنبية .. ألاترين هذا ؟ »

نظرت لى فى خبث ، وفهمت .. كنت قد حدثتها كثيرًا عن (برنادت) ليس بغرض شراء علبة الشيكولاتة والذهاب لوالدها طبعًا ، ولكن لتعرف أننى يومًا ما ربما أفعلها حقًا لامزاحا ..

قالت لى وهى تعيد الفنجان إلى الصينية :

- « والله لاتساوى (الخواجاية) ظفر بنت خالتك .. »

لم أكن أرى هذا الرأى .. لاأعرف السبب .. هل حقًا

لأن (برنادت) نادرة وأننا عشنا معًا فى أهوال تكفى لجعلى أحبها .. أم لأن عقدة الخواجة تغلبت على؟ عقدة الخواجة التى سقط فى براثنها من هم أذكى منى وأكثر أصالة ،من وزن شاعرنا العظيم (بيرم التونسى) نفسه ، حين كتب (عقلى فى باريز وقلبى على مصر) وكتب :

(حاتجن ياريت يا اخوانا مارحتش لندن ولاباريز ..
دى بلاد تمدين ونضافة ونوق وظرافة وحاجة تغيظ !)

لكنى لن أتزوج إلا (برنادت) وإن لم أستطع فلن أتزوج .. هذا شأنى ولن أقدم تفسيرات لاأعرفها ..

- « إنها لن تفهمك أبدًا .. ولن تعرف أبدًا كيف تربى عيالك كما تريد .. »

لكن المشكلة هى متى وكيف أحاول .. إنها تلعب بى لعب الحواة ، فلاتريد أن تسمح لى بمزيد من التقرب أو المكاشفة ولاتولينى ظهرها فتخسر صداقتى .. وهكذا أظل أبدا فى وضعية الأخ (هاملت) الخالدة .. التردد .. العجز عن اتخاذ القرار الصائب ، والعمر يمضى بلاطائل ..

- « الخواجاية لن تعرف أبدًا كيف تسبك لك البامية ، ولربما حرمت أكل الملوخية فى الدار .. »

ثم لو تزوجنا - وهذا عسير - هل نظل فى (سافارى) للأبد ؟ أم أجرها معى إلى مصر لتجلس في الشرفة مع أمى تقرأ لها الطالع فى فنجان القهوة ؟ أم تجذبني هى إلى (كندا) حيث حياة غريبة لا أعرف عنها شيئًا وأهابها كالموت ؟

- « الخواجاية لن تبقى طوعك ، ولن ترعى بيتك وحرمتك كما رعيت أنا بيت أبيك وحرمته .. »

- « أماه .. انا لن أتزوج (مادونا) .. أنا أتكلم عن طبيبة هادئة وفى حالها .. »

ليس رسم المستقبل بالسهولة التى تخطر للمرء أحيانًا ، وعلىّ أن أكتفى بتخطيط مستقبلى العلمى ، وأترك باقى (المستقبلات) للظروف ..

- « هناك ثعبان .. ثعبان كبير فى الفنجان .. »

ثعبان ؟ هذه رؤية جديدة من نوعها .. لقد صارت فناجين القهوة لا تثبت على حال ..

- « هل تراه ؟ إنه يحاول أن يبلع الفتاة ، وهذا يعنى أنها شريرة وأن قلبها أسود .. »

آه .. فهمت إذن لماذا قرر الثعبان أن يظهر هذه المرة بالذات .. فى ثوان نسيت أمى أن الفتاة تشبه (غادة) ابنة خالتى ، وتحولت الفتاة - بمعجزة ما - إلى خواجاية شريرة .. شريرة إلى درجة أن الثعابين تبتلعها !

عزيزة سانجة طيبة القلب ..

أمى لا الفتاة طبعًا !

* * *

وانتهى الشهر الثمين ، وعدت إلى (سافارى) أحمل جعبة من الذكريات العزيزة ..

طبعًا احتجت إلى وقت أكثر من اللازم كى أستعيد إيقاع حياتى ، واندماجى فى العمل .. كنت كتلميذ الابتدائى حين يعود للمدرسة أول يوم بعد عطلة الصيف .. أو - أسوأ من هذا - كنت كمحرك سيارة نام فى مرآب بارد عامًا كاملاً ، والآن يحاولون إدارته .. وفى ذعر فطنت

للحقيقة : فى كل فترات حياتى الصعبة كنت أنتظر أن تنتهى الفترة .. أنتظر النور عند نهاية النفق .. ماذا لو عرفت أن هذه هى حياتى ذاتها .. ليس بعدها بعد ، وأن النفق لانهاية له إلا القبر ؟

ماذا بعد هذا ؟ ماذا بعد هذا ؟ سؤال ملح يتردد فى ذهنى ، لكن لا إجابة عنه ..

واندمجت ـ ببطء ـ مع الملاريا المخية والجذام وداء الفيل ، ورحت من جديد أدبر المكائد لـ (ليفى) وأفر من (باركر) وأتعلم من (جيديون) ..

مر أسبوع .. أسبوع .. ثم بدأت القصة ..

* * *

٢ ـ أفاع أكثر من اللازم ..

فى الواحدة صباحًا استدعونى إلى الاستقبال كى أعاون الطبيب الروسى (فاريا) .. كانت علاقتنا قد تحسنت بعد المشادة الأخيرة .. وقد وجد أننى لست بهذا السوء ، كما أننى وجدت أنه ليس كذابًا أشرًا .. هناك كان منهمكًا فى غسيل جرح فى ساق إفريقى يعوى ولا يكف عن الصراخ ..

قال لى وهو يفرغ زجاجة محلول الملح :

ـ « عضة أفعى .. يبدو أنه كان قرب إحدى قرى (الباميليك) حين حدث هذا .. »

كانت الممرضة قد فرغت من قياس الضغط ، ووجدته منخفضًا .. فقال الروسى :

ـ « مرت عليه ساعة ونصف ومعنى هذا أن السم يؤدى عمله الآن .. »

وكأنما سمع الكلام ، مال الإفريقى على جانب الفراش وتقيأ ، وهى علامة سيئة بالنسبة لنا .. هبوط الضغط والقىء معناهما أن السم فى كل مكان من جسده ..

- « آى .. آى ! »

وأمر الممرضة بإعطاء المريض بعض (الكوربرومازين) ، ثم المصل المضاد للكزاز (التيتانوس) .. كان يعمل وهو يتكلم ، وقد قال لى على سبيل التعليم :

- « طبعًا موضوع تشريط موضوع العضة بالموسى كلام فارغ .. لقد علمته السينما للناس ، وصار مقدسًا برغم أنه يؤذى المريض والممرض معًا .. »

كنت أعرف هذا طبعًا ، فهو ينسى أننى عالجت مئات عضات الأفاعى من قبل ، وكنت وحدى بلامستشارين .. لكننى هززت رأسى فى انتباه .. وكنت أعرف أن الرباط الضاغط - التورنيكيه - هو الشىء الوحيد المفيد للمصاب حتى يصل إلى المستشفى ..

أحضرت أمبولات المصل المضاد للسم وهشمت منها عشرة أمبولات أذبتها فى محلول ملحى ، وبدأت التنقيط فى عروق المريض ببطء شديد .. لم يكن الأمر سهلاً لأن المريض قد يكون مصابًا بحساسية للمصل ، لكن القاعدة هنا هى : لاتتوقف .. استمر .. لايوجد حل آخر .. فقط أعط المريض جرعات من أدوية الحساسية فى أثناء العمل .. كان علينا أن نكرر هذا الموضوع بعد أربع وعشرين ساعة ..

وقفنا نرمقه شاعرين بالرضا عما قمنا به ، ولاحظت أن موضع العضة قد صار محاطًا بتورم بالغ فى الأنسجة ، كما أن بعض الفقاقيع بدأت تظهر على الجلد .. هذا مشهد معتاد مع عضات الأفاعى ولايعنى أى شىء على الإطلاق ..

فلما انتهينا أرسلناه إلى عنابر الملاحظة ، حيث يلاحظه أحدهم ، وعدنا نمارس عملنا المعتاد .. كانت هذه ليلة هادئة لحسن الحظ ، وهى ليال تتضح من بدايتها .. يمكنك بعد الجلوس نصف ساعة أن تعرف إن كانت هذه ليلة هادئة أم ليلة من التى يفتح فيها باب جهنم ..

وجدنا الوقت المناسب للجلوس واحتساء القهوة الكريهة ، والكلام عن (البريسترويكا) وأسباب تفكيك الاتحاد السوفييتى إلى شظايا .. وكان زميلى عقائديًا متحمسًا من الحرس القديم ، يؤمن أن هذه كلها مؤامرة رأسمالية .. وفى الرابعة صباحًا جاءت الحالة الثانية من عض الأفاعى ..

لم يكن هذا غريبًا .. نحن فى منطقة استوائية تحيط بنا الأحراش ، ولسنا فى (مانهاتن) لو كنت تعرف ما أعنيه .. لهذا عكفنا على تكرار السيناريو السابق ، وكانت المصابة امرأة سوداء ملأت الدنيا صراخًا .. وقد احتجنا إلى ساعة كاملة حتى أدركنا أنها لن تموت .. على الأقل لن تموت بسم الأفعى ..

هنا حدث ذلك الشىء الذى يحيل الصدفة إلى شىء آخر مريب .. لقد جاءت حالة ثالثة ..

نظر لى فى حيرة ، ونظرت له فى غباء .. وخطر له ولى أن مصل الأفاعى لن يكفى بهذا الشكل .. فهو يتسلم كمية محدودة للنوبتجية تكفى حالة أو حالتين ..

كان القادم عجوزًا فى الستين من عمره ، وكانت حالته متقدمة نوعًا ، وحاولت أن أسأل رجلى الإسعاف عن وقت اللدغة ، لكنهما هزا رأسيهما ، إنهما لا يعرفان .. فقط أشعل أحدهما لفافة تبغ ، وقال :

ـ « (باميليك) .. يبدو أن الأفاعى تهاجم قراهم .. إن هذا يحدث فى موسم الجفاف .. »

لوحت بيدى لأبعد ألسنة الدخان .. وكنت قد تعلمت أن هؤلاء القوم لا يهتمون لحظة بخطر التدخين المطبق فى (سافارى) .. من يريد أن يشكو فليشك ، ولكن بأية صفة ؟ أنا لست رئيسهم ..

ـ « تعنى أن هناك المزيد ؟ »

ـ « طبعًا يا دكتور .. إن اليوم يوم الأفاعى لو شئت الدقة .. »

كان العجوز فى حالة صدمة عامة ، والعرق البارد يغمر جبينه ، وقد راح يقضى وقته ما بين القىء والهذيان .. حاولنا معه كثيرا جدًا لكننا لم نجرؤ على حقن الأدرينالين مع قلبه الواهن أصلاً ..

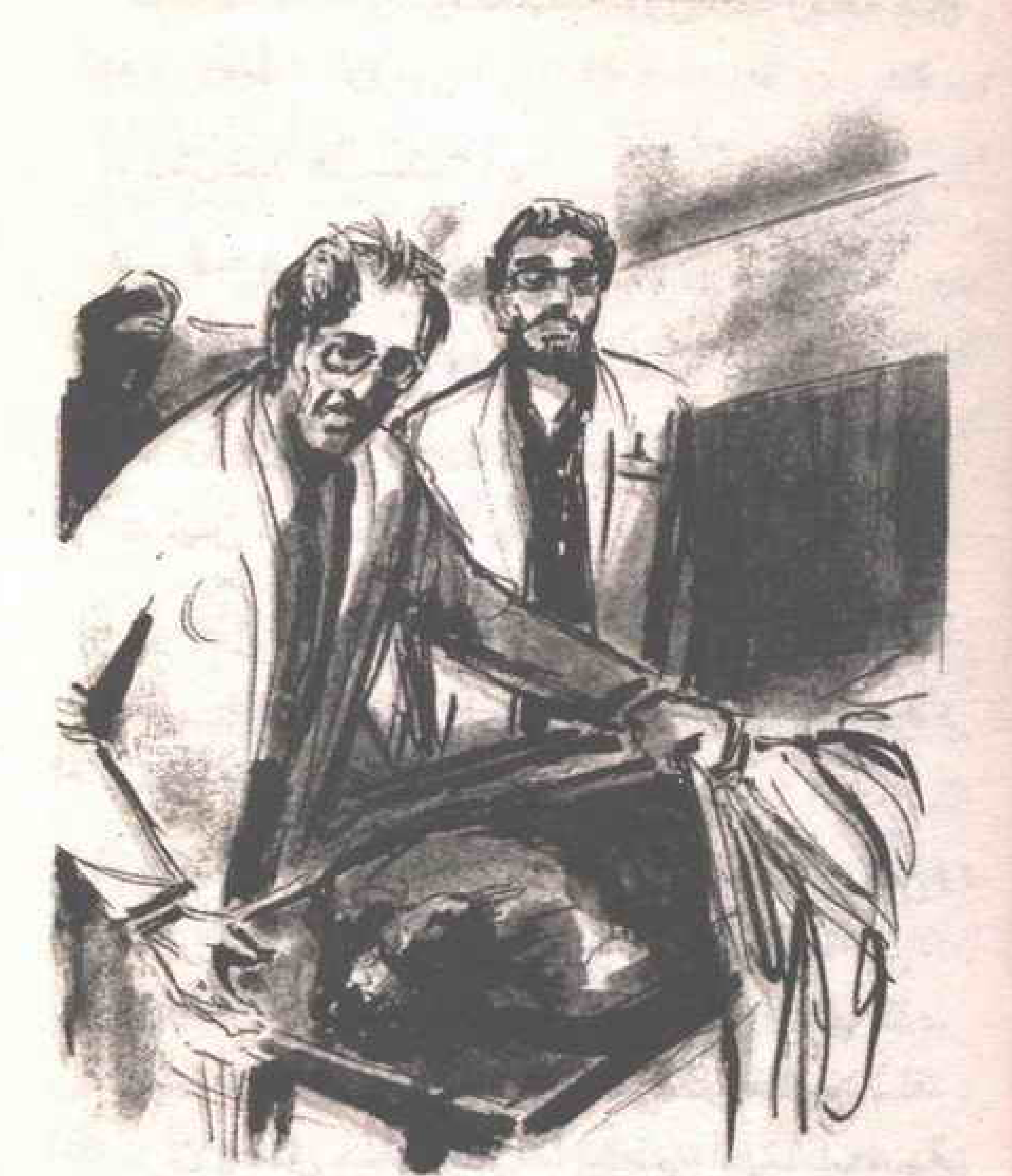
وبعد جهد عنيف ، وجد الموت أنه استمتع بوقته بما يكفى ، وأن عليه الآن أن ينتهى بسرعة .. ووجدنا نفسينا - أنا والروسى - نقف الآن أمام جثة زنجية ملوثة بالعرق .. لقد انتهى السر الكونى الذى كان يجعلها تتحرك وتتأوه منذ ثوان .. وهز رجل الإسعاف الإفريقى رأسه فى أسى ، وكف عن التدخين لحظة على سبيل الحداد ، ثم قال :

- « (باميليك) .. إن هذا يحدث فى موسم الجفاف .. »

قال الروسى ، وهو يرفع الملاءة ليغطى وجه المتوفى :

- « ما كان له أن يجرب تلك الألعاب العنيفة فى سنه هذه .. هذه الألعاب للصغار أيها الفتى العجوز .. »

لم أكن من الطراز الذى اعتاد الموت بعد .. ولم أكن أستطيع أن ألقى دعابة أمام متوف مازال ساخنًا .. حقًا مازال الموت يهزنى ويزعزعنى برغم أننى رأيت منه الكثير جدًا .. لهذا آثرت الصمت ..


ووجدنا نفسينا - أنا والروسى - نقف الآن أمام جثة زنجية ملوثة بالعرق ..

جلست ـ بعد ما أخذوا المحفة ـ ورشفت رشفة من القهوة ، وسألت الروسى :

ـ « هل تجد هذا معتادًا ؟ »

هز رأسه فى لامبالاة ، وقال :

ـ « لكل قاعدة استثناء يؤكدها .. »

ـ « هذه نفسها قاعدة لها استثناء ! أى أن هناك قواعد ليس لها استثناء ! »

ـ « هذه المسائل المنطقية التى تلتهم نفسها تضايقنى .. لو كنا قد اعتدنا رؤية حالة واحدة ليلاً ، فلا يوجد قانون يمنع أن نرى ثلاثًا .. »

لم يرق لى هذا المنطق كثيرًا ، لكن البحث عن شىء غريب فى أمور منطقية قد صار عادة نميمة بالنسبة لى .. لعل فى هذا شيئا من الصبيانية .. صبيانية الغلام الذى راقت دعابته للكبار فراح يكررها حتى أثار مللهم .. لقد اعتدت أن يصدق حدسى ، وهذا يجعلنى أحيانًا شخصية لا تطاق ..

كان الصباح قد جاء وسرنى هذا .. إن باقى اليوم إجازة ويمكننى أن أنام ملء جفونى حتى الظهر .. تثاءبت ، ورحت أحلم بما ينتظرنى من إفطار فى كافيتيريا (سافارى) .. طبعا هو لا يتجاوز عجينة ما توضع فوق عجينة أخرى ، مع كوب ورقى من القهوة عديمة المذاق ، لكننى جائع ويمكننى أن التهم الروسى نفسه لو سمح لى ..

* * *

عند العصر تقريبًا اتجهت لغرفة (آرثر شيلبى) .. لِمَ لا ؟ إن الرجل مفيد فى الغالب ، كما أننى لم أره منذ جئت من مصر .. هذا غريب .. فالرجل شبيه بذباب الصيف .. لابد من أن يكون فى حياتك بشكل ما .. وحتى لو لم تطلبه ـ ولا أحد يطلب ذباب الصيف ـ تجده جوارك أو حولك ..

كان جالسًا أمام شاشة الحاسب الآلى يداعب الأزرار ، وقد أراح ذقنه على قبضته اليسرى .. وشعر بدخولى دون أن ينظر ، فقال فى شرود باسم :

ـ « هاى (علاء) .. كيف حال الأسرة فى مصر ؟ »

هززت رأسى فى تهذيب وجلست :

- « بخير .. لم يمت أحد على الأقل .. »

- «جميل .. جميل .. مازال هناك أمل إذن .. »

ثم عاد يتأمل الشاشة فى اهتمام شديد .. دنوت منه وتأملت الموجود عليها .. كانت هناك خارطة كبيرة للكاميرون ، تناثرت عليها صور مصغرة لأنواع ثعابين .. وأدركت أنه يتعامل الآن مع شبكة الإنترنت ، لأن المؤشر تحول إلى إصبع حينما مر فوق إحدى الأفاعى ، وهو مايسمونه (ربطة فائقة) ..

قال كأنما يكلم نفسه :

- «نوعان لا أكثر .. هووووم»

- «عم تبحث ياسيدى ؟»

قال فى غيظ وقد هبط عليه السؤال كالماء البارد :

- « (علاء) .. حين ترى خارطة للكاميرون رسمت عليها صور أفاع ، فلا تتصور لحظة أننى أبحث عن طراز أحدث من السيارات .. أنت أذكى من هذا .. »

ابتسمت للتعبير ، وقلت مصححًا كى لا أتهم بالغباء :

- « أعنى .. لماذا تهتم بالأفاعى ياسيدى ؟ »

- «لقد صارت متحمسة هذه الأيام .. ألم تلحظ هذا ؟ »

- «يقولون إنه الجفاف ياسيدى .. أهل البلاد يعرفون هذه الأمور ويألفونها .. لكننى لم أر إلا ثلاث حالات فى الفترة الأخيرة .. »

- « أفاع سامة ؟ »

- « غالبًا .. د. (فاريا) قال هذا .. يبدو أن علامات التسمم العام كانت واضحة .. وقد فقدنا إحدى الحالات .. »

قال وهو يضغط على زر الفأرة :

- « أنت مغيب فيما يبدو .. إن وحدة (سافارى) توشك على التحول إلى مركز لسموم الأفاعى ، وقد طلب منى (لويس السادس عشر) أن أجد له تفسيرًا .. »

ثم نظر إلى الشاشة وأردف :

ـ « كما ترى لا يوجد فى غرب إفريقيا سوى نوعين من الأفاعى السامة : أفعى الجابون ومنشارية الحراشف .. طبعًا أتكلم عن الأفاعى وليس الثعابين أو الأصلات لو كنت تذكر الفوارق بينها[*] .. »

طبعًا تظاهرت بالعلم ، وهززت رأسى .. ما كنت أذكر حرفا من كل هذا الهراء عن الأنياب التى تنغلق داخل الفم ، والحفر الحسية .. الخ .. لم يكن مزاجى رائقا لسماع المحاضرة التطوعية التى سيتحفنى بها حتمًا ..

سألته لأجعله ينسى الموضوع :

ـ « هل عاد (ماونت كاميرون) للثورة ؟ كانت هذه آخر مرة حدث فيها هياج للأفاعى .. كانت أول مرة بالنسبة لى كذلك .. »

قال فى ضيق :

(*) تحدث العجوز (رفعت إسماعيل) ببعض التفصيل عن هذه الأمور ، فى (أسطورة بيت الأفاعى) .. الكتيب رقم ٤٥ . لا داعى إذن لتكرار المعلومات ذاتها !!

ـ « لا .. هذه المرة تتصرف الأفاعى بطريقة غير مسبوقة ، وعلى كل حالٍ ليس هذا شأننا هنا فى (سافارى) ، لكنى أكره أن أرى لغزا لم أشارك فى حله .. »

قال إن هذا ليس شأننا .. وكالعادة ـ كما تتوقعون ـ سرعان ما اتضح أن هذا شأننا .. كيف ؟ هذا بالطبع هو موضوع الصفحات التالية ..



* * *



٣ ـ عام الأفاعى ..

فى الأيام التالية عرفت أن الأمر خطير بحق .. صرنا نرى ثلاث أو أربع حالات فى البداية ، ثم ازداد العدد حتى لم نعد نرى تقريبًا إلا عضات الأفاعى ، وخطر لى أن ظاهرة بيولوجية غير معتاده تحدث .. كل المصابين من قرى (الباميليك) ، وهى قرى تتركز فى إقليم (أداماوا ماسيف) ، تسكنها قبائل مسلمة ..

بالطبع استطاع بعض ـ بل أغلب ـ المصابين أن ينجوا ، لكن عددًا لابأس به لم يتحمل العضات ، وقد حاولت أن أفهم بعض الأمور عن هذه الظاهرة العجيبة ، وطلبت من (بودرجا) الأحمق أن يساعدنى فى تفسير كلام هؤلاء القوم ..

لكنه قال لى ـ فى فتور ـ إننى لن أظفر بشىء منهم لأن الأمر واضح ..

ـ « ياسلام !! لماذا لا أجده بنفس الوضوح ؟ »

نقر بفخر على صدره وقال :

ـ « لأنك لست ابن هذا البلد يادكتور .. أما أنا فابنه وأفهمه .. »

ـ « تفهم ماذا ؟ »

ـ « أفهم أن هذا عام الأفاعى .. »

وكاد ينصرف ، لكنى جذبته من مئزره الطبى الأبيض الطويل ، وصحت فى غيظ :

ـ « عام ماذا ؟ »

ـ « عام الأفاعى يادكتور .. هذه أشياء معروفة .. »

فلما اعتصرت منه الإجابة اعتصارًا ، قال لى إن هناك قبيلة تعبد الأفاعى .. نعم .. قبيلة من (البانتو) مازالت تؤمن بالأفاعى ، ولا تؤمن بعبادة الأسلاف ولا (أنكلانكولو) كباقى قبائل هذا البلد ..

هنا أتوقف لأقول : إن (البانتو) كلمة واسعة جدًا ،

نشأت منها أكثر القبائل الإفريقية جنوب خط الاستواء .. إن (البانتو) يبلغ عددهم أصلاً ستين مليونـا ، نشئوا فى (الكاميرون) من ألف عام ، ثم ارتحل منهم من ارتحل شرقًا ، ومن ارتحل غربًـا .. ومن هؤلاء نشأت قبائل (الهوسا) و(الشونا) و(الكيكويو) و(الزولو) .. باختصار : إن تنوع (البانتو) لايصدق ، ومن السذاجة أن يفترض المرء أنهم جماعة واحدة ، ذات ميول وعقائد واحدة ..

قبيلـة البانتـو التى يتحـدث عنهـا (بودرجا) تدعى (أونجيللا) ، وهى قبيلة تهوى الارتحال ، ولاتستقر فى مكان بعينه .. وهى بدائية .. وحين يتهم (بودرجا) قبيلة بأنها بدائية فلابد أنها كذلك .. أى أنها لاتتمتع حتى بأدنى أشكال النظـام الاجتمـاعى الـذى كونتـه القبائل الأخرى ..

لكنهم ليسوا من أكلـة لحوم البشر ، لو كنت مهتمًا بمعرفة هذه النقطة .. فى الحقيقة لايوجد أكلة لحوم بشر فى (الكاميرون) ، لأن البلد ليس بهذا التخلـف بالطبع .. لقد كانت لنـا تجربـة استثنائية قديمـة ، لكنها ليست قاعدة ولايقاس عليها ..

قال الأخ (بودرجا) ضمن ما قال إن قبيلة (أونجيللا) هذه تعود إلـى (أدامـاوا) مـرة كـل عشـر سـنوات ، والنـاس يتطيرون لعودتهـا أشـد التطير ، لأن الأفاعى تجتاح كل شىء ، وتعض الجميع ، لهذا يطلق النـاس على هذا العام الأسود اسم (عـام الأفاعى) .. عـام يمـر بالطول أو بالعرض ، وفى النهاية ترحل القبيلة حاملة أفاعيها وأكواخها ومعتقداتها البالية ، وسرعان ماتعود الحياة لمجاريها ..

ـ « وأين يذهبون بعد انتهاء العام ؟ »

ـ يعودون إلى (الجابون) يادكتور .. إنهم يعيشـون أكثر الوقت هناك .. »

ـ «وكيف يعبرون الحدود ؟ »

ضحك حتى لمعت أسنانه البيضاء ، وقال :

ـ « ألم أقل لك إنك لن تفهم هذا البلد أبدًا ؟ إن التعامل مع هذه القبائل البدائية يعنى التعامل مع قوم ليس لهم وجـود رسمـى .. ليسـت لديهم أوراق هـوية ، وليسـوا

مدونين فى قوائم التعداد ، وليست عليهم ضرائب .. أشخاص كهؤلاء يعبرون حدود أى بلد يريدون .. هم يعرفون أن قوات الحدود لن تعترضهم ، وقوات الحدود تعرف أنه لاخطر منهم .. »

وتثاءب وأضاف :

- « ثم إن جميعنا هنا ينتمى لقبيلة أو أخرى .. أى أن حارس الحدود نفسه قد يمت لهم بصلة قربى ، أو تعاملت قبيلته معهم من قبل .. إن القبيلة هى القومية الوحيدة المعترف بها فى إفريقيا الاستوائية .. لاتقل هذا رجل من (الجابون) .. لكن من قبيلة (الوولوف) .. لا تقل إن هذا من (روديسيا) بل قل إنه من (الزولو) مثلاً .. »

* * *

طبعًا لم أصدق حرفًا من هذا الكلام .. لقد رأيت غرائب كثيرة فى إفريقيا ، ويمكن القول دون مبالغة إن كل خرافة لها أصل هنا ، لكنى لست رائق المزاج حتى أصدق مقولة إن الأفاعى تظهر مع قبيلة بذاتها ..

لقد نسيت الأمر ، وإن أضفته إلى ذاكرتى .. ذاكرتى التى تتشرب ببطء ثقافة القارة ، حتى إننى لأتحول تدريجيًا إلى خبير أجناس وأنثروبولوجى وأساطير ، كل هذا فى صورة شاب ملتح عصبى قليلاً ..

فى هذا الصباح توجهت إلى قسم التخدير للعمل - كالعادة - مع الطبيب اليابانى (إيشيهارا) ، وأنا أحب التخدير لالشىء إلا لأنه يجعلنى أقرب إلى جو الجراحة الذى أحبه .. الدم المتناثر وأزيز جهاز الكى الحرارى ، والشعور بالمسئولية .. هذا ينفض عنى الكثير من ملل المعمل وكل هذا الهراء الذى لا أطيقه .. هنا أشخاص يقاومون المرض بأصابعهم ولاينتظرون حتى تتعطف عليهم عقارات غامضة كى تؤدى المهمة ..

كان الإيطالى العظيم المرعب (سباتزانى) واقفًا هناك كأنه (زيوس) نفسه ، وكان يجلجل بالسباب والضحك والأوامر طيلة الوقت .. فلما رآنى صاح بصوت كاد يوقظ المريض :

- « مرحى ! الصبى الملتحى هنا !! هل حاولت أن تقرأ بعض الجراحة مؤخرًا ؟ »

ارتبكت وابتلعت ريقى، وهززت رأسى أن نعم ..

- «نحن نفتح الآن تحت الضلع الثانى عشر .. فما الأوردة والأعصاب التى يمكن أن نقطعها فى التجويف الثانى عشر ما بين الضلوع؟»

كنت قد اعتدت هذه الامتحانات المفاجئة، لهذا بحثت فى ذاكرتى، وقلت أول ما خطر لى:

- «هناك حزمة أعصاب قد ..»

هنا وجدت أكثر الواقفين ينظرون لى محذرين، وعيونهم تقول (ها هو ذا مسكين آخر قد وقع فى الشرك!)، بينما جلجلت ضحكة (سباتزانى) كأنها ضحكة المنون:

- «لا يوجد شىء اسمه التجويف الثانى عشر ما بين الضلوع، لأنه لا يوجد ضلع ثالث عشر .. هذا لا يحتاج إلى علم بل إلى ذكاء يا صبى!! هاه هاه هاه!!»

طبعًا أنا أعرف هذا جيدًا، كما أعرف أنه لا يمكن أن تضع أوراقك ما بين صفحتى ٥ و ٦ من أى كتاب،

لأنهما ببساطة نفس الورقة .. لكنه الارتباك والرهبة و... تبًا! لقد جعل منى أحمق!

لكنه استطرد فى مرح:

- «أعرف أنك تعرف! هذا ليس امتحانًا لعلمك بل لحضور ذهنك وسرعة بديهتك .. والجراح يحتاج أولاً إلى حضور ذهن وسرعة بديهة .. تبًّا! أين هذا المبضع ؟!»

ووجه ضربة قوية بكوعه إلى الطبيب الواقف جواره، فأخرج الهواء من فمه ..

من العسير أن تكره (سباتزانى) برغم كل شىء .. فهو - بالإضافة لشخصيته الظريفة الكاسحة - يعلمك طيلة الوقت، إن لم يكن طبًا فهو يعلمك سلوكًا أو حسن تصرف أو حتى سبة جديدة قد تحتاج إليها يوما ..

فى هذه اللحظة سمعنا مكبر الصوت المقيت يردد أن د. (علاء عبد العظيم) مطلوب حالاً فى مكتب المدير ..

نظرت مبتسمًا فى حرج إلى الطبيب اليابانى الذى صار رئيسى المباشر اليوم ، فابتسم بدوره بما معناه ألا مفر لدى ..

وتساءل (سباتزانى) دون أن ينظر لى :

ـ « ماذا ؟ يريدونك يافتى؟ هل قتلت أحدًا مؤخرًا ؟ »

ابتسمت فى حياء ، وأنا أتنحى جانبًا لأنزع قناعى ، وهززت رأسى بمعنى أننى لا أذكر حقًا ..

كنت أعرف أن هناك كارثة .. صحيح أن السابعة مساء بعيدة جدًا ، لكن (بارتلييه) قادر على أن يأتى بها الآن ..

* * *

كان جالسًا فى مكتبه .. ليس وراءه بل على أحد مقعدين رخيصين موضوعين أمامه ، وذلك ليعطى إحساس الألفة لرجل فارع الطول جاحظ العينين يجلس أمامه .. رجل من طراز أعرفه جيدًا ، بربطة العنق زاهية اللون والسترة ذات اللون البيج الفاتح جدًا ..

(سكرية اللون) كما نقول عندنا .. لو كانت منظمة الصحة العالمية سحابة ، فهى لا تمطر إلا هذا الطراز من الزوار الأمريكيين ، ولو كانت غابة فليس وراء أشجارها إلا هؤلاء ..

كان (آرثر شيلبى) هناك أيضًا ، وكان يقف جوار المكتب ممسكًا بقدح خزفى كبير (ماج) ينبعث منه البخار ، ولم يكن (باركر) نائب المدير هناك لحسن الحظ ، لأنه يحيل الحياة إلى جحيم ، ويشعرك بالذنب لسبب لاتدريه ..

ـ «اجلس يا د. (عبد العظيم) ، ودعنى أقدم لك البروفسور (ويليام براكستون) .. إنه خبير فى منظمة الصحة العالمية .. »

بحثت عن مقعد لأجلس فلم أجد ، وبدا لى أنه من السخف أن أفتح الباب لآتى بمقعد من عند السكرتيرة ، لذا أرحت ردفى الأيسر على المكتب وعقدت ذراعى على صدرى ، على الطريقة الأمريكية ، وقلت إنه (هاى) ..

قال (بارتلييه) مواصلاً كلامه :

- « البروفسور (براكستون) خبير فى الزواحف الطبية .. بعبارة أخرى : خبير ثعابين .. وهو مكلف بالاستقصاء عن ظاهرة غامضة بعض الشىء .. »

آه ! خبير زواحف ! كنت قد سمعت مرارًا عن الكيفية العجيبة التى يتماهى بها المرء مع مهنته ، لكن ليس إلى هذا الحد .. إنه قد تحول حقًا إلى ثعبان آدمى ، ولن أندهش لو أخرج لسانًا مشقوقًا فى أية لحظة من الآن ..

قلت وأنا أكتم ضحكة :

- « موضوع هجوم الأفاعى على قرى (الباميليك) طبعًا ؟ »

قال الأمريكى ، وعيناه تتسعان لخطورة ما سيقول :

- « كلا .. ليس بالضبط .. الموضوع هو ظهور أفعى (راسل) هنا !! »

* * *

٤ـ إنهم يعرفون شيئا !

قال خبير الزواحف المذكور أعلاه (على طريقة الخطابات الحكومية) :

- « أفعى راسل تنتمى لعائلة كبرى من الأفاعى يطلق عليها اسم (آدار Adder) .. »

- « (آدر) ؟ »

- « نعم .. وهى مشتقة من كلمة إنجليزية قديمة هى (نادر) بمعنى (أفعوان) .. يبدو أن تطور اللغة الإنجليزية جعل الناس يحذفون حرف (النون) على سبيل التجديد .. اسمها العلمى (فايبر روسيللى) أو (دابويا) إذا سألتنى عن اسم التدليل .. والآدار هى الأفعى الوحيدة الموجودة فى اسكتلندا ، وواحدة من ثلاث أفاع موجودة فى إنجلترا .. يقول السكوتلنديون إن القديس (باتريك) قد شمل البلاد ببركاته وأخرج منها الأفاعى ، لكن هذا ليس موضوعنا بالضبط ..

« إن الآدر ليس من الأفاعى عظيمة السم ، وليس عنيفًا فى سلوكه بشكل خاص ، لكن أفعى (راسل) التى تعيش فى جنوب شرق آسيا من أشرس الأفاعى ويقال إنها مسئولة عن ثلث عدد من يموتون بسم الأفاعى كل عام .. إنها ليست طويلة ولا مخيفة الشكل .. طولها لا يتجاوز المتر .. وهى واسعة الانتشار سريعة التكاثر ، حتى إن الأهالى ـ حيث تعيش ـ قد يصطادون منها أربعمائة فى يوم واحد ..

« كما تعرفون ، لا يوجد هنا إلا أفعى الجابون ومنشارية الحراشف .. الأخيرة بالغة الخطر ، وسمها من أخطر السموم المعروفة ، لكنها ـ وهذا غريب ـ ليست فى قائمة المتهمين الحالية .. »

قلت له مقاطعًا :

ـ « لحظة ياسيدى .. هل قلت إن أفعى (راسل) هذه تعيش جنوبى شرق آسيا ؟ »

ـ « بالضبط .. »

ـ « ونحن بالتأكيد لسنا جنوبى شرق آسيا .. »

ـ « أنت تتكلم بلسانى .. »

ـ « إذن ما الذى أتى بهذه الأفعى الحمقاء هنا ؟ »

ـ « هذا هو السؤال الصحيح .. ولهذا اجتمعنا لنعرف ماذا أتى بها .. »

ـ « وكيف عرفت أنها أفعى (راسل) هذه ؟ »

ـ « لقد اصطاد الأهالى اثنتين منها .. إن مكتبنا هنا يعرف هذه الأمور مثل أى واحد آخر .. »

نظرت للمدير ثم (شيلبى) وقلت ما ينبغى أن يقال لو لم يفعلا :

ـ « ومادور هذه الوحدة فى الموضوع ؟ فهمت أن المشكلة الحالية هى وجود أفعى معينة حيث لا ينبغى أن توجد .. هذه فى رأيى مشكلة بيئية بيولوجية ليس بوسع مجموعة من الأطباء حلها .. »

قال (آرثر شيلبى) وهو يحيط القدح بكفيه كأنما يطلب الدفء :

- « يرى البروفسور (براكستون) أن خبرتنا بـ (الباميليك) تجعلنا مؤهلين بشدة لهذه المهمة .. إن التنسيق بين هذه الوحدة ومنظمة الصحة العالمية أمر مرغوب فيه ، ولا يجب أن نترك فرصة تتيحها لنا .. »

وقال المدير وهو يتحسس بطنه فى استمتاع :

- « كلانا يمشى فى طريق منفرد ، كأننا قطاران لايلتقيان أبدًا على نفس القضيب .. هذا يضايقنى لأننا نملك خبرات لابأس بها ، بينما هم يملكون إمكانيات واسعة جبارة .. »

قلت فى تأمل :

- « إن القطارين لايلتقيان إلا وتحدث كارثة .. لابد من كثير من الدماء والصراخ وشظايا الزجاج المبتورة والجازولين المشتعل !! »

- « لربما أسأت أنا التشبيه .. لنقل إننا عازفان لايستخدمان النوتة ذاتها .. هذه فرصة لننتج سيمفونية متناسقة معًا .. »

ثم طلب أن ينتحى بى جانبًا ، واعتذر لضيفه .. فنهضت فى تثاقل ومشيت معه إلى الباب ، ووقفنا فى غرفة السكرتيرة .. اعتصر ساعدى بيده الشحيمة والتمعت عيناه فى وجهه المكتنز وهمس :

- « (علاء) .. الرجل يريدك .. »

- « يريدنى أنا بالذات ؟ »

- « يريد من يملك الكفاءة وقد رشحتك .. وإننى لأنذرك : لا أريد آراءك الساخرة الهدامة ولا تمردك المستمر .. نحن بحاجة إلى هذا التعاون ، لأنه يحسن صورة الوحدة ، ويمنحها مرونة فى التعامل لدى المنظمة .. فإن بدت منك علامات لا تروق للرجل فالويل لك .. »

لم أجد سبيلاً لاعتراض ، فقلت فى ملل :

- « ليكن .. لكن ما هو المطلوب منى بالضبط ؟ لو كان يطلب خبرتى فى صيد الأفاعى فهو أحمق .. »

- « ستجلس معه وتضعان خطة ما .. لابد أن لديه تصورًا .. هؤلاء القوم لا يمزحون .. »

فكرت قليلاً، ثم قلت وقد بدأت أسترجع خيوط محاورتى الأخيرة مع (بودرجا):

ـ «ثمة قبيلة .. قبيلة تدعى (أودجيلا) تقيم فى (أداماوا) حاليًا، وهى من تلك القبائل المشئومة التى تجلب معها الثعابين حيث ذهبت .. هذا هو ما يقوله الأهالى هنا، وأرى أنه قد يكون ثمة أساس ما لما يقولون .. قد تكون هذه نقطة البدء».

قال فى نفاد صبر وهو يتركنى عائدًا إلى المكتب:

ـ «لا أهتم بالتفاصيل، ولا يهمنى ما تنوى أن تفعل .. فقط افعله!»

★ ★ ★

كان (ويليام براكستون) رجلاً لطيفًا، فلو تناسينا شكله العجيب الذى يشبه الأفعى حقًا، لوجدنا أنه من النوع الذى تشعر بأنك تعرفه من زمن .. وقد أصغى لكلامى فى صبر، يقطعه ببعض الأسئلة، ثم طلب أن يسمع شهادة (بودرجا) الذى امتلأ فخرًا لأن الهراء الذى يقوله صار مصدرًا للبحث العلمى ..



ووقفنا فى غرفة السكرتيرة .. اعتصر ساعدى بيده الشحيمة والتمعت عيناه فى وجهه المكتنز وهمس: ـ «(علاء) .. الرجل يريدك ..»

كان (براكستون) من النوع العصبى الذى ترتجف يده باستمرار ، فلو أضفنا لهذا نحوله الواضح وجحوظ عينيه ، لقلنا إن غدته الدرقية لا تؤدى عملها جيدًا .. ولكن لم يكن من الأدب أن ألفت نظره لهـذا ، خاصة وهو بالتأكيد سمع من يقترح عليه هـذا .. إنـه محاط بالأطباء طيلة الوقت ، وإن لم يكن هو نفسه طبيبًا ..

قال لنا بعد انتهاء استجوابه لـ (بودرجا) ، وقد جحظت عيناه أكثر :

- «يبدو أنه لاحل أمامنا سوى زيارة هذه القبيلة .. »

ثم أشعل لفافة تبغ اقتنصها بصعوبة بيده المرتجفة التى كادت تحرق ربطة عنقه ، وسألنى :

- « هل زرت (أدماوا) من قبل ؟ »

قلت بالفرنسية حتى يتابعنى (بودرجا) :

- « فليصحح لى (بودرجا) أية معلومة خاطئة .. (أداماوا ماسيف) - هكذا اسمها كاملاً - هى منطقة تمتد إلى جنوب شرق نيجيريا وغرب جمهورية إفريقيا

الوسطى .. إنها أرض ترتفع عن سطح البحر ، ولها أصول بركانية قديمة .. وتغمرها غابات السافانا .. لهذا تعتمد على المراعى أساسًا .. أما عن اسمها فلا أدرى .. »

هنا تدخل (بودرجا) قائلاً :

- « اسمها مشتق من اسم أحد قواد الفولانى المسلمين ، هو (موديبو أداما) الذى أقام إمارته هناك .. »

قلت باسمًا :

- وكالعادة الإفريقية فى تحريف الأسماء العربية ، يمكن القول إن (موديبو أداما) هو (المؤدب أحمد) ، قبل أن يغير اللسان الإفريقى نطقه ، ليبدو إفريقيًا خالصًا.. »

فكر الرجل قليلاً وحك رأسه ساهمًا ، ثم اتخذ قراره :

- « نحن بحاجة إلى الذهاب هناك .. هل نستطيع تدبير هذا غدًا ؟ »

– « لابد من طلب موافقة المدير .. إن الهليكوبتر ستوفر علينا الكثير من المعاناة فى هذه الطرق الوعرة .. »

وكنا قد ظفرنا بطائرة جديدة وطيار جديد ، بعدما فقدنا الأولين فى حادث مؤسف كما تعلمون ..

وتمت الموافقات فى دقائق .. عندما يريد المدير شيئا فإنه يفعله مهما كان عسيرًا ، أما لو طلبت أنا أو سواى الشىء نفسه ، لوجدنا أن الوصول إلى القمر أسهل .. كان (بارتليبه) مصرًا على أن تبدو قدرات (سافارى) عظيمة مبهرة للرجل ، وفى نفس الوقت كان يتعمد أن يقنعه بأن الكثير مازال ينقصنا .. أى أننا نملك العقل والكفاءة لكننا لانملك المال .. وفهمت على الفور أن الأمر يتعلق بمنحة مالية ماستقدم للوحدة من منظمة الصحة العالمية .. لهذا يحاول إرضاء الرجل ، ولو طلب (براكستون) أن يلعب البنج بونج بكرات عيوننا أو نط الحبل بأمعائنا ، لوافق المدير فى حماسة ..

* * *

لماذا جاءت (برنادت) معنا ؟

أقول لك إننى لا أدرى .. بالتأكيد لم أطلب أنا هذا ، ولو فعلت لقوبل طلبى برفض لامفر منه ، ولكانت (فضيحتى بجلاجل) كما يقولون .. المدير هو من طلب هذا ، ولم أستطع قط فهم السبب العبقرى الذى يجعله يطلب إرسال طبيبة أطفال كندية حسناء إلى (أداماوا) كى تبحث عن أفعى (راسل) ..

لقد جربت حملة سابقة مع (برنادت) ، ولا أنسى أنها كانت تنبح أمامى .. لهذا أشعر براحة أكثر لو عرفت أنها ليست معى .. أنا فى هذا أتصرف كذكر شرقى يسره أكثر أن يعرف أن الزوجة فى دارها سالمة معززة .. من دونها لن تكون لدينا ذيول نقلق عليها ، وسنكون على راحتنا أكثر .. هذا رأيى حتى لو أغضب الأخوات (الفيمينست) إياهن ..

وقد قلت للمدير فى تهذيب :

– « إن حكمتك أعمق من فهمى ، لكن لو فعلها واحد آخر لا أحمل له كل هذا الإجلال لاتهمته بأنه أحمق ! »

ابتسم فى خبث وقال :

- « أنت و (برنادت) على تفاهم تام ، وأعتقد أنكما تكونان فريقًا لا بأس به .. هذا يعطيك الراحة النفسية للقيام بما يجب أن تقوم به .. »

طبعًا هذا كلام للاستهلاك المحلى .. ليس الشغل الشاغل للمدير توفير الراحة النفسية لى ، وبهذا الأسلوب بالذات .. وإلا فإننى أتهمه بتهم لايمكن ذكرها هنا ..

قلت محنقًا :

- « إن راحتى النفسية من شأنى أنا ، ولا أحد يحدد لى ما يريحنى وما لايريحنى .. »

قال فى جدية :

- « (علاء) .. أنا المدير والمفترض أن أعرف من يذهب لأين .. هناك أطفال فى الموضوع .. أطفال تعضهم الأفاعى بلا انقطاع من فترة طويلة .. الدكتورة (جونز) تهتم بالأمر ولديها ما تبحث عنه لدى هذه القبيلة .. هل فهمت الآن ؟ »

شعرت كأنما الأقدار تصر على أن تكون (برنادت) معى .. لا مفر ..

قلت لنفسى : إن الأمور لن تكون خطيرة .. بضعة أيام تنقضى سريعًا وتنتهى المهمة .. لا بأس .. سأتحمل (برنادت) قليلاً ، ويعلم اللّه وحده أنها صارت نوعًا من العذاب المقيم لى .. عذاب أفضل عليه أن أكون مع (أبراهام ليفى) طيلة اليوم .. على الأقل كلانا يفهم الآخر ويكرهه ويتمنى أن يقطع رقبته .. علاقة بسيطة ومريحة جدًّا قوامها المقت المتبادل .. بلا شكوك ولا هواجس ولا أحلام محطمة ..

أحيانًا أتمنى لو لم تكن (برنادت) فى (سافارى) أصلاً ..

* * *

وفى الصباح الباكر البارد ، كنا فى الطائرة .. وكان (بودرجا) كالعادة يولول ويملأ الدنيا صراخًا ، فهو ذاهب إلى حيث لن يعود .. إنه ذاهب إلى أكثر

مناطق إفريقيا ثراء بـ (الداوا) ، لو كانت (الداوا) من الثروات الطبيعية هنا ..

وكانت المحركات تهدر معلنة فصلاً جديدًا من هذه القصة ..

★ ★ ★

٥ ـ فى القرية ..

حينما نزلت الطائرة فى القرية ، خيل لى أننى رأيت هذا المشهد من قبل ، أو أننى دخلت السينما عند هذا الجزء .. قرية عادية جدًا من قرى (البانتو) بكل معالمها المعروفة .. الأطفال العراة يتصايحون ويحتشدون حول الطائرة ، والنِّسوة يقفن ليرمقن المشهد بأيديهن الملوثة بالعجين حتى المرفقين .. الرجال لا يبدو أنهم محاربون ، وإنما هم أقرب إلى المزارعين أو العمال .. يوجد عدد من الفتية المراهقين يمشون مع قطعان من الخراف أو الماشية .. لافارق هنالك بين هذا المشهد وأية قرية رأيتها ، إلا أن الجو العام يوحى فعلاً بالترحال .. هؤلاء قوم لم يأتوا ليبقوا هنا .. البيوت أقرب إلى الخيام المغطاة بجلد الماشية ، ولا يوجد ما يوحى بنشاط سكانى دائم .. لكن الحياة كلها قد تصلبت فى الواقع لدى وصولنا .. الجميع يرمق هذه المعجزة التى هبطت

من السماء .. يرمقها ويرمش بعينه بسبب الغبار المتطاير من مروحة الطائرة ، لكنه لايكف عن النظر ..

ترجل (بودرجا) من الطائرة ، وهو يحنى قامته كى يقلل من دفع الهواء ، وصاح فى أحد الواقفين :

ـ « (أودجيللا) مايا ؟ »

نظر له الرجل فى غباء ، ثم تبادل النظرات مع الآخرين ، هنا تدخل أحدهم وقال :

ـ « مايا يو .. (أودجيللا) .. »

وهكذا عرفنا أننا لم نضل الطريق ، وقد راح (بودرجا) يتبادل الكلام معهم بكثير من العسر ، ويستعمل الكثير من الإيماءات ، فدنوت منه أسأله :

ـ « ما هى هذه اللغة ؟ »

ـ « غريبة جدًا يا دكتور .. تذكرنى بلغة الجوكون فى (نيجيريا) لكنها محرفة بشدة .. »

ـ « المهم أنك تفهم وهم يفهمون .. »

ـ « هذا صحيح .. لكن بصعوبة .. »

كان (براكستون) يتحرك جيئة وذهابًا فى نفاد صبر ، وكما تفعل الجياد قبل بدء السباق ، حتى إننى أكاد أقسم أنه راح يحفر الأرض بحوافره .. الكاميرا معلقة فى صدره ، وعيناه جحظتا حتى لتوشكان على إسقاط عويناته السوداء .. وقد قال لـ (بودرجا) بعدما طالت المحادثة :

ـ « هل لهؤلاء القوم كبير ؟ رئيس أو حاكم أو شىء من هذا القبيل ؟ »

قالت (برنادت) وهى تشير إلى ما وراء ظهورنا :

ـ « لاداعى للسؤال .. إن الإجابة واضحة .. »

ونظرنا إلى اتجاه نظراتها ، فرأينا (ميرا ـ جوران) ..

★ ★ ★

لن أصف لك (ميرا ـ جوران) لأن الوصف لايجدى .. ولأن هناك أشياء لايمكن نقلها إلى الورق .. أضف إلى ذلك ما قاله كل نقاد الأدب مرارا من أنه لاجدوى

من وصف البطلة بالجمال .. المهم أن تصف كيف رآها البطل ، أو كيف كان وقعها على نفسه .. لو كنت أنا البطل وكان رأيى مهما فإن بوسعى أن أزعم أنها كانت أروع شىء رأيته فى حياتى ، وكانت قادمة من نفس العجينة التى جاءت منها (ماتا هارى) و(كليوباترا) و(سالومى) و(دليلة) و ... كل فاتنات التاريخ اللواتى تحول العظماء أمامهن إلى أطفال حمقى .. هل أبالغ لو قلت إنها كانت بالفعل مزيجًا من كل هؤلاء ؟ هل أبالغ لو قلت إنها كانت أجمل ؟ ربما ..

لا .. سألتزم إذن بالقواعد الأدبية ، ولا أصف (ميرا ـ جوران) بالجمال !

كانت هندية .. هذا واضح لأنها كانت ترتدى ثيابًا غريبة هى مزيج من الجلباب الإفريقى زاهى الألوان والسارى الهندى ، وكان من العسير ألا تتبين الهند فى ملامحها .. رائحة البخور ، والتماسيح المتصارعة فى نهر الجانج ، والنقوش على المعابد الهندوسية القديمة ، وزهور اللوتس و ... والأفاعى المقدسة طبعًا ..

ملامحها تقول هذا كله وأكثر ، ومن البداية أدركت أنها خطرة كأفعى الجرس ..

خطرة وشريرة وستحاول خداعنا .. وفى الغالب ستنجح .. إن فتاة كهذه لابد أن تنجح ..

ولكن ماذا أتى بفتاة هندية إلى (أداماوا) وسط هذه القبيلة العجيبة ؟؟

كانت واقفة تبتسم وقد ألصقت كفيها كعادة الهنود فى الصلاة ، ولمحت الشامة الملصقة على جبهتها فأدركت أنها متزوجة وهندوسية ، لأن مسلمات الهند لايلصقن علامة الزواج هذه ..

همست (برنادت) فى مزيج من الضيق والدهشة :

ـ « ما هذا السيرك ؟ فتاة هندية هنا ؟ »

قلت وأنا كالمنوم مغناطيسيًا :

ـ « لابد أن لديها قصة جديرة بالسماع .. »

ـ « أراهن على هذا .. »

ودنونا أكثر من الفتاة ـ أو المرأة ـ الواقفة ، فحنت رأسها بالطريقة الهندية المعروفة ، وتكلمت .. كان كلامها بإنجليزية صافية راقية ، كأنما تتكلم مع الخواجة (تشرشل) شخصيًا .. قالت لنا :

ـ « مرحبًا بكم فى قرية (أودجيللا) .. أنا (ميرا ـ جوران) .. »

سألها (براكستون) الذى أوشكت غمته الدرقية على قتله توترًا :

ـ « أنت كاهنة هذه القرية طبعًا ؟ »

ضحكت ضحكة بلورية رنانة تذكرك بقطع الثلج حين تسقط فى كوب المياه الغازية ، وقالت :

ـ « لماذا يجب أن أكون كاهنة ؟ لماذا يجب أن يكون هناك كهنة أصلاً ؟ »

وأشارت بيدها كى نتبعها إلى ما يشبه كوخ واسع جدًا ..

دخلنا متوقعين أن نرى عجبًا ، فلم نر إلا حشية على الأرض ، جوارها إناء كبير للماء من الفخار ، وبعض الأوراق محشورة فى حقيبة جلدية .. لم تكن هناك سحب من البخور ولا أفاع تتدلى من السقف إذا كنت تفكر فى هذا .. نحن توقعنا شيئًا مماثلا فلم نجد .. وفى صمت تربعنا على الحشية وجلست هى معنا ..

كان القوم يحتشدون على الباب وكل يحاول أن يجد لرأسه ـ وعينيه ـ موضعًا بالداخل ، فأشارت إلى أحدهم وقالت بضع كلمات بلغتهم ، من ثم انصرف الرجل ..

همس (بودرجا) الذى كف عن الكلام من زمن ، لأن سعة علمه اللغوى لم تصل بعد إلى الإنجليزية :

ـ « تأمرهم بتقديم الكاسافا لنا !! »

ـ « الويل !! »

إن إفريقيا مليئة بالأخطار، لكنى لم أر قط خطرًا أدهى من التهام الكاسافا ، التى هى نوع من المعجون

المقزز كريه المذاق لايختلف طعمه فى شىء عن المعجون الخاص بدهان الجدران ، وعليك أن تأكله بقبضتك وتلوث به لحيتك .. وإلا اعتبروك وقحًا غير مهذب ..

بعد دقائق من الصمت والكاسافا سألها (براكستون) :

- « لا أريد أن أكون فضوليًا ، لكن ألا ترين شيئًا غريبًا فى هذا كله ؟ »

سألته فى استمتاع :

- « أى شىء بالضبط ؟ »

- « هندية وسط هؤلاء القوم .. ولا يبدو أنك بدائية .. »

ابتسمت ابتسامتها الخلابة وقالت :

- « إن لوجودى بينهم قصة غير معتادة .. لقد بدأ كل شىء .. »

هنا مالت (برنادت) على أذنى وهمست فى حذر :

- « ما رأيك فيها ؟ »

كنت أعرف أن هذه طلقة اختبار .. امتحان على أن أنجح فيه ، فقلت بلهجة تدعى الصدق :

- « غير مريحة .. متصنعة بعض الشىء .. »

هنا تقلص وجهها فى افتتان ووله وهمست بلهجة تدعى الحرارة :

- « بالعكس .. إنها أرق وأجمل مخلوقة رأيتها فى حياتى .. إنها فاتنة وأعتقد أننى همت بها حبًا دون أى جهد .. »

هكذا !! كنت أتوقع شيئًا كهذا .. لست خبيرًا فى نفسية المرأة لكنى أعتقد أن المرأة حين تشعر بأن هناك أخرى تهدد عرش سحرها ، فإنها تلجأ إلى اختبار مشاعر الرجال حولها .. لو وجدتهم مفتونين بالأخرى فإنها تبدأ فى إعلان اشمئزازها من القادمة الجديدة .. كم أنتم حمقى تنخدعون بسهولة ! كم أنتم بلهاء ! هذه أقبح مخلوقة قابلتها فى حياتى .. إن المساحيق تفعل الكثير ..

أما لو وجدت الرجال غير متحمسين أو متحفظين، فإنها تبدأ على الفور فى إعلان افتتانها بالقادمة الجديدة! كم هى رائعة .. كم هى ساحرة ! وهى بهذا تتظاهر بالموضوعية والروح الرياضية ..

الخلاصة أنها لابد أن ترى رأيًا عكس ما يراه الرجال .. ولو قلت إن هذه ساحرة ، لقالت (برنادت) إننى أحمق .. وإن (ميرا) غير مريحة .. متصنعة بعض الشىء !

وأفقت من خواطرى على صوت الهندية تكمل القصة التى فاتنى أولها ..

* * *

– « .. وهكذا جاء أبى الميجور السابق (آرشر) بأمى الهندية إلى (الجابون) .. واستقر هناك ..

«لم يلبثا أن رزقا بى ، وأطلقت أمى على اسم (ميرا ـ جوران) ، وهو اسم مهم فى الثقافة السنسكريتية ، وكما قلت سابقًا فإن أمى التى ولدت فى (بوبورا)

قرب (نيودلهى) ، كانت تقدس الأفاعى .. كانت تعتبر أن الأفاعى تجسد (ناج ديوتا) .. إن نصوص (جاتاكا) البوذية تحكى بوضوح كيف أن سحر الأفاعى كان مهنة معترفًا بها بل ومحترمة ، فى الهند من القرن الثالث قبل الميلاد .. كل حواة الأفاعى يتجمعون فى (بوبورا) ، وهم يشكلون اثنتى عشرة فصيلة ..

«يبدأ سحرة الأفاعى عملهم بالتوسل إلى (ناج ديوتا) والقديسين (جوراك ناث) و(كنيفا) .. حسن .. لم تكن أمى من الحواة ، لكنها نشأت فى بيئة لاتسخر تمامًا من هذه الأمور ..

« وحين جاء أبى هنا ، لم يحاول كثيرًا أن يغير من عقيدة زوجته الحسناء .. كان يحبها وقد اكتفى بهذا .. »

«فيما بعد تعرفنا قبيلة (أوبجيلا) ، وكان من الغريب أن تكتشف أمى أنهم يشاركونها الميول .. ليس بنفس الأسلوب ، لكن عبادة الأفاعى تجمع بينهما .. وعبادة الأفاعى على قدر علمى لم تمارس قط فى غرب إفريقيا .. إن هذه القبيلة استثناء حقيقى ..

« كان القوم ودودين .. وحين توفى أبى فوجئت أمى بأنهم على استعداد لأن يعطوها وابنتها الأمان والمأوى .. وعشنا معهم أعوامًا لابأس بها ، ثم إننى عدت إلى الهند التى رأيتها لأول مرة .. وقضيت هناك أربعة أعوام ، لكنى ـ وهذا بشرى ومفهوم ـ شعرت بالحنين والحاجة إلى العودة .. لقد نشأت هنا ولم أحب قط قومًا آخرين ..

« وتدريجيًا اكتسبت مكانة عظيمة عند هؤلاء القوم .. علمتهم الكثير .. لا أجرؤ على الزعم أننى غدوت كاهنة لهم .. هذه كلمات فاخرة جدًا أكبر من الحقيقة بكثير .. لنقل إننى ضيفة فوق العادة فى هذا المجتمع .. وقد تزوجت أخيرًا من زعيمهم ، وبالتالى صاروا أسرتى حقًا .. »

وضاقت عيناها حتى لم يعد فيهما إلا اللون الأسود، وقالت :

ـ « هل أوضحت لكم من أنا ؟ »

★ ★ ★

سألتها وهناك أشياء عدة تقف فى حلقى من قصتها هذه :

ـ « كيف لم يسمع أحد قط عن هندية تعيش فى هذه القبيلة وتتزوج زعيمها ؟ »

نظرت لى بطريقتها الودود ، وقالت :

ـ « هذا سهل .. إن القبيلة غامضة يتطير منها الناس هنا .. لا أحد يزورها أو يدنو من مضاربها .. لم يسمع عنا أى عالم أجناس ، ولم تأت الصحافة العالمية لتلتقط لنا الصور .. إذن كيف تريد أن تعرف بوجودى ؟ »

ثم أردفت وهى تنظر لـ (برنادت) باسمة بلا سبب واضح :

ـ « إن الناس لا يحبون الأفاعى .. لا يفهمونها .. وسمعة القبيلة ـ ظلمًا ـ سيئة للغاية بين متكلمى الفولانى فى هذه المنطقة .. »

هنا فقط تكلم (براكستون) كأنما أفاق من نوم طويل ، وهتف :



ثم أضافت مبتسمة فى خبث :
- « طبعًا لا تحاولوا جمع أية أفاع .. إن هذا عمل أحمق هنا .. »

- « هل جئت معك بأفاع من الهند ؟ »

- « بالتأكيد .. لماذا تسأل ؟ »

ضرب بيده على ركبته وصاح مثلما صاح (أرشميدس) يومًا فى الحمام :

- « هذا هو !! أفعى (راسل) الهندية التى ظهرت هنا فجأة !! ما كان هناك تفسير آخر ! »

قالت الهندية وهى تنهض وتضع يديها فى خصرها :

- « نتحدث عن هذا فيما بعد .. إننى أدعوكم إلى حفل القبيلة هذا المساء، وبعده يمكننا الحديث عن خططكم .. »

ثم أضافت مبتسمة فى خبث :

- « طبعًا لاتحاولوا جمع أية أفاع .. إن هذا عمل أحمق هنا .. أحمق ولايخلو من خطر »

* * *

٦ ـ عن الطوطم والفتيش وما إلى هذا ..

لم يكن يومنا سيئًا ، بعد ما انصرفنا من ضيافة الهندية الحسناء .. كان علينا أن نجتمع جوار البئر ونناقش خطتنا المستقبلية .. لم يبد أن القوم يولوننا اهتمامًا خاصًا ، وقد كفوا عن التزاحم لرؤيتنا بعدما حفظوا شكلنا ، وهذه سمة لدى كل البدائيين : سرعة الملل .. سرعان ما يفقدون شغفهم ، ولربما لو اتضح لهم أن (بودرجا) يطير أو أننى لأخرج النار من فمى ، لاحتفظنا باهتمامهم وقتًا أطول .. فقط كانت امرأة أو اثنتان ترمقنا بعين فاترة وهى تتجه للبئر لتملأ الماء ..

كنت أول المتكلمين حيث جلسنا على الأرض :

ـ « يجب أن نحدد الهدف من مجيئنا هنا .. هل هو لجمع الأفاعى الغريبة وتصنيفها ، وإجراء دراسة بيئية عنها ؟ »

قال (براكستون) فى توتر كعادته :

ـ « هذا هو الهدف الوحيد .. ولهذا جئت إلى (سافارى) .. »

ـ « من الواضح أن هذا لن يتم .. أو على الأقل لن يتم بمعونة هؤلاء القوم .. تخيل أن تزور بعض البوذيين ، ثم تجمع أصنامهم فى كيس قبل أن ترحل .. معنى هذا أنك لن ترحل أبدًا .. »

سألتنى (برنادت) :

ـ « والهدف الثانى ؟ »

ـ « أن نندمج مع هذه القبيلة ونفهم المزيد عنها .. نلعب دور الباحثين الأنثروبولوجيين ومن هذا سنعرف من أين تأتى كل هذه الأفاعى ، وكيف نقى الناس منها .. ولماذا تعود القبيلة كل عشر سنوات .. »

ثم نظرت إلى الأستاذ (براكستون) وسألته فى أدب :

ـ « كم من الوقت تتوقع أن تستمر هذه الزيارة يا سيدى ؟ »

ـ « لا أدرى .. نحن لم نتبين أى شىء على الإطلاق .. هناك قبيلة تعبد الثعابين .. لكن هذا لا يفيد عملنا فى شىء .. على كل حال ستعود الهليكوبتر بعد ثلاثة أيام .. »

نظرت (برنادت) حولها وتساءلت :

ـ بالمناسبة .. أنا لم أر ثعبانًا واحدًا منذ جئنا هنا .. يخيل إلى أن هذه هى القرية الكاميرونية الوحيدة الخالية من الثعابين .. »

وخطر لنا جميعًا نفس الخاطر فى اللحظة ذاتها ، ونهضنا جميعًا ننفض ثيابنا التى امتلأت بثعابين وهمية .. المفترض أنها موجودة هنا تحت كل حجر .. لا شىء .. جلسنا جميعًا من جديد نتنفس الصعداء ، وقال (براكستون) وهو يرتجف توترًا :

ـ « إن هذه القبيلة تحيرنى .. فلو صدق أنهم يعبدون الأفاعى ، ولو صدقت الكاهنة الهندية ـ وأنا أصر على اعتبارها كاهنة ـ فإن الأمر يعد خليطًا مثيرًا من عقيدة (الطوطم) وعبادة الحيوان .. »

تساءلت فى نوع من التهكم :

ـ « وماذا فى ذلك ؟ لا أجد فارقًا بين أنواع الهراء وبعضها . إن الوثنية هى الوثنية .. »

ابتسم فى غموض وقال :

ـ « كلامك مقنع بالنسبة للمتدينين .. لكنه لا يقنع علماء الأنثروبولوجى .. إن الطوطم هو العقيدة التى تتوقع أن تجدها لدى الشعوب البدائية من هذا الطراز .. إنه نظام معقد من الرموز والممارسات كلها تهدف إلى إيجاد علاقة بين العشيرة وبين رمز يدعى (الطوطم) .. الطوطم قد يكون نباتًا أو حيوانًا أو طيرًا .. بمعنى أدق : الطوطم ـ الأفعى فى حالتنا هذه ـ هو رمز الجماعة ومعلمها وحاميها .. وبالطبع يعتقدون أن له قوى خارقة للطبيعة .. »

ثم فتح أصابعه ليعد عليها بصعوبة وبرغم الرجفة :

ـ « أولاً ممنوع قتل الطوطم .. ثانيًا ممنوع لمسه .. ثالثًا ممنوع التهامه لو كان يؤكل .. إنه علامة تصنيفية ترمز للأصل الموحد للجماعة .. لقد نشأ منه الجميع وإليه يعودون ..

« الخطأ الذى وقع فيه علماء أنثروبولوجى القرن التاسع عشر أنهم حسبوا الطوطم دينًا وثنيًّا .. لا .. ليس كذلك .. إنه خطوة أولى لما قبل هذه الأديان .. بعد هذا ظهرت الوثنية ومثال لها عبادة الأفاعى كما كان الفراعنة يفعلون .. وحتى فى الهند اليوم ، حين يمسك الساحر بالأفعى ، فإنه يفترض أن إلههم (ناج ديواتا) يسمح له بأن يتحسس جزءًا من جسده .. »

قالت (برنادت) :

- « مازلت لا أفهم ما ترمى إليه ؟ »

- « أعنى أن الطوطم كان عقيدة هؤلاء القوم ، حتى جاءت الهندية فجعلتهم يعبدون الأفاعى .. وهى بهذا ارتقت بهم خطوة نحو الجحيم ! »

- « وماذا عن عبادة الأجداد ؟ كنت أحسبها منتشرة فى غرب إفريقيا .. »

- « هذا صحيح .. لكن ليس لدى هذه القبيلة .. إنها منتشرة لدى (البانتو) كما تنتشر لدى (الشنتو)

فى اليابان .. هذه الديانة تفترض أن الأجداد واعون يحرسون من على الأرض ، ولهذا يرسلون لهم الرسائل من حين لآخر .. حاليا يرسلون لهم القرابين الحيوانية ، لكن كان من الشائع فى الماضى أن يقتل الملك أسراه ، بعد أن يحملهم رسالة لأجداده .. وهم بهذا يلعبون دور السعادة بين عالمين !! »

- « والفتيش ؟ هل هو شىء مماثل ؟ »

قال فى كياسة :

- « بالنسبة للعالم النفسى عشق الفتيش نوع من الانحراف النفسى لا أستطيع الكلام عنه هنا .. لكن بالنسبة لعالم الأنثروبولوجى ، يمثل الفتيش السحر بالترميز أو التقليد .. أى أن الساحر يصنع دمية تشبه الشخص المطلوب إيذاؤه ، وكل ما يحدث للدمية يحدث للشخص المطلوب .. أحيانًا يرمز الفتيش لعقيدة قبيلة بأكملها ، وهى عمومًا نشأت من غرب إفريقيا .. حيث نحن الآن .. »

ساد الصمت ونحن نفكر فى كلماته ، بينما قال (بودرجا) الذى لم يفهم أكثر ما قيل :

ـ « هؤلاء سحرة ، وهذا المكان شرير .. يجب أن نرحل سريعًا .. »

كنت أوافقه طبعًا ، لكنى لم أعلن هذا ..

★ ★ ★

فى المساء جاءنا رجل صموت ، دعانا إلى كوخ (ميرا ـ جوران) ..

دخلنا وكانت جالسة هناك على الحشية ، وقد امتلأ الجو برائحة أعشاب عطرية لا أعرفها ، لكنها ـ كما لك أن تتصور ـ مدوخة ساحرة .. كانت قد بدلت ثيابها وارتدت ما يشبه السارى الهندى ، له لون لا أجد ما أصفه به إلا أنه (بمبة مسخسخ) لو سمحتم لى بهذه اللغة ، وهو نموذج على الألوان الهندية المثيرة للغثيان .. لكنه كان بشكل ما يناسبها .. وكانت أصابع يديها تتخذ وضعًا معقدًا يذكرك بأوضاع الأيدى فى الرقصات الهندية..

قالت لنا بطريقتها الودود :

ـ « اجلسوا .. »

ثم مدت يدها وتناولت مزمارًا هو أقرب إلى قرعة مجوفة ، غرس فيها قضيبان من الخيزران .. ودخل أحد الرجال يحمل سلة مغلقة ووضعها أمامها .. كان المشهد مألوفًا لكنى لم أره رأى العين قط .. ولاحظت أن القوم بدءوا يتجمعون فى الكوخ وخارجه ، حتى صار المكان أقرب إلى أحد حافلات النقل العام ..

بدأت (ميرا) تعزف .. أناملها تتحرك برفق ولطف على ثقوب المزمار ، وموسيقا منومة تنبعث .. موسيقا تتسلل إلى أعصابك نفسها وتعيد لك ذكريات لم تعشها .. موسيقا من الطراز الذى يجعلك تطفو .. تطفو .. خفيف الرأس كالحلم ..

مدت يدها فى رفق وأزاحت غطاء السلة ، وسرعان ما رأينا الرأس الشرير المنتصب يخرج .. هذه (كوبرا) .. كوبرا راحت تتمايل فى افتتان ومع إيقاع اللحن .. ومدت (ميرا) يدها فى إناء جوارها وقذفت الحية ببعض قطرات من الماء ..

قال لى (براكستون) همسًا حيث جلس جوارى :

ـ « الأفاعى لا تسمع .. لاتنس هـذا .. كـل هـذه الموسيقا تعطى جوًا نفسيًا لا أكثر .. »

ـ « ولماذا ترقص إذن ؟ »

ـ « هى التى توحى لها بذلك بحركات جسدها .. بحركات يدها .. بالماء الذى نثرته فى البداية ، والذى يجعل الكوبرا خائفة متحفزة .. لهذا تنشر ظهرها بهذا الشكل الخلاب .. »

فهمت .. الحقيقة أن المشهد الجدير بالمشاهدة .. كانت (ميرا) نفسها لا الأفعى .. كانت تتمايل كأفضل أفعى فى العالم .. أفعى وردية اللون أو ـ إذا شئنا الدقة ـ لونها (بمبة مسخسخ) ..

هنا فقط صاح القوم بشىء ما ، ثم ضرب أحدهم طبلة ليواكب إيقاع المزمار .. مزيج ساحر لا يوصف من الطابع الإفريقى والهندى معًا يتسقان فى لحن واحد لابد أن تسمعه كى تتخيله ..

هنا أمسكت الفتاة بالسلة وقلبتها .. لم تكن السلة تحوى حية واحدة بل ثلاثًا !

وجاء أحدهم يحمل مزيدًا من السلال ، وراح يفرغها أمامها السلة تلو الأخرى ، ووجدنا فى النهاية أن هناك ما يقرب من ثلاثين أفعى تقف فى صف واحد أمام المرأة ، وكلها تتمايل مع الموسيقا !

الحق أن أعصاب المرأة حديدية ..

من جديد تدخل (براكستون) خبير الثعابين العالمى ليصحح لى :

ـ « كل الثعابين لدى الحواة تخضع لجراحة بارعة قبل أن تمارس عملها .. إنهم يحدثون شقًا على جانبى الرأس وراء كل ناب ، وهذا يمنع وصول السم من غدته إلى تجويف الناب » ..

لا أدرى كيف سمعت (ميرا) ما قلناه وسط كل هذا الصخب ..

أوقفت العزف ، ونظرت لنا فى حزم نظرة قاتلة ، ثم عادت لطريقتها البشوش ، وقالت :

ـ « لا يا بروفيسور .. لا .. إن هذه الجراحة تؤدى إلى موت الثعبان سريعًا لأنها تجعل التهام الطعام أليمًا ، وأنا لا أؤذى ثعابينى مقابل أن أبهركم .. »

ثم ابتسمت بسمتها العابثة الطفولية قليلاً وقالت :

ـ « وعلى كل .. الأمر هين .. لماذا لا تختبر منطقك العلمى وتحاول الإمساك بواحدة من بناتى هذه ؟ »

طبعا لم يفعل .. لأن هناك احتمالاً لا بأس به أن تكون المرأة صادقة .. وعندها ..

كان هناك أطفال بين المواطنين الواقفين ، ورأيتها تشير بإصبعها لطفل منهم فدنا منها متهيبًا .. رفعت بخفة واحدة من الحيات وبرفق لفتها حول كتفيه ..

كان الغلام يوشك على البكاء أو الإصابة بسكتة قلبية ، لكنه وقف متصلبًا .. بينما الكائن البشع يلتف ببطء حول كتفيه .. يتشممه بلسانه .. يخرج لسانه ويدخله فى فمه عشرات المرات فى الثانية الواحدة ، ثم انسل ببطء من فوق الغلام نازلاً إلى الأرض إلى حيث الموسيقا ..

طريقة تربوية جيدة لتعليم الصبية ألا يتهيبوا الثعابين ، لكن الصبى البائس كاد يموت رعبًا ، ومعه كادت (برنادت) التى اعتبرت نفسها تحمل التوكيل الرسمى لأطفال الأرض ..

وتواصل (ميرا) العزف ..

وتواصل الطبول دقاتها ..

* * *



٧ ـ تلك العضات الليلية ..

نمنا فى الثالثة بعد منتصف الليل .. أعنى بالطبع أن الآخرين ناموا لكننا لم نغمض جفنًا .. كانوا قد أعطونا كوخًا من أكواخهم المريحة التى تغفو فيها على حشية على الأرض ، تنقل لك كل تضاريسها ..

وقد تقاسمت و(بودرجا) إحدى الحشايا ، بينما اختار (براكستون) واحدة و(برنادت) أخرى ..

ومن الخارج كنت لاتسمع إلا أصوات وحوش مبهمة تهدد وحوشًا أكثر إبهامًا ، وكان الظلام خانقًا يجثم على أنفاسك بحق .. لقد أطفئوا آخر مشعل فى القرية .. لكنى تذكرت أن هذه أول مرة تقريبًا أقضى ساعات الصباح الأولى مع (برنادت) .. تجربة رومانسية لو لم نكن فى مملكة الأفاعى هذه ..

وحين ارتفع صوت شخير (بودرجا) وتعالى صوت

تنفس (براكستون) المنتظم ، وبدأت عيناى تميزان الموجودات بلون رمادى كاب ، سألت بصوت هادئ هامس :

ـ « لست نائمة طبعًا ؟ »

قالت بصوتها المتعب :

ـ « لا .. ويبدو أنك لست نائمًا كذلك مالم أكن مخطئة .. »

ـ « فيم تفكرين ؟ »

تنهدت وقالت كلمة لم أستوعبها جيدًا ، ثم أضافت :

ـ « المكان لايريح ولايوحى بالثقة .. سيسعدنى أن نرحل .. »

ـ « هذا ما أفكر فيه .. لكن علينا أن نتحمل هذه الأيام الثلاثة .. لامفر من هذا .. »

وساد الصمت .. كنت أعتقد أننى سأقول ما هو أكثر لكن الكلمات تجمدت على شفتى .. سئمت الكلام ..

سئمت لعب دور المراهقين الذين يتمنون أن يقولوا كلمات الحب لأنها تريحهم .. فى النهاية سألتها فى الظلام وأنا سعيد أنها لا ترى وجهى :

ـ « هل تتزوجيننى يا (برنادت) ؟ »

ساد صمت طويل ، ثم همست :

ـ « أخيرًا ! »

ـ « أخيرًا ماذا ؟ »

ـ « أخيرًا وجهت السؤال الصحيح ! »

ـ « وماذا عن الإجابة الصحيحة ؟ »

ساد صمت طويل مرهق ، ثم قالت بنفس الإرهاق السابق :

ـ « لِمَ لا ؟ أعتقد أننى سأوافق .. لكن عليك ألا تأخذ هذه الكلمات كرد نهائى .. هذا ليس عدلاً .. أمهلنى حتى أجد نفسى فى ظروف أفضل .. »

ـ « ولماذا ليس الآن ؟ »

ـ « أنت تفهم .. لا تمد يدك لى وأنا أوشك على الغرق فى المحيط ، وتزعم أنك بهذا تعطينى حرية القبول أو الرفض .. أنا الآن فى حالة نفسية مضطربة .. أشعر بالخوف والاشمئزاز من هذا المكان وهؤلاء القوم .. ثمة حالة من الوهن النفسى لا تعطى جوابى الحالى قيمة ما .. أنا بحاجة لمن يكون جوارى .. »

لم أرد أن أواصل الكلام ، ومد (بودرجا) ذراعه ليعتصر عنقى فى حنان أبوى ، حتى كدت أختنق وراح يضحك فى نومه .. لابد أنه يرى حلمًا لطيفًا جدًا .. أزحت ذراعه ونهضت ووقفت فى الظلام أنظر للأرض ..

هتفت فى دهشة :

ـ « إلى أين ؟ »

أمسكت بفردتى حذائى ، واتجهت نحو باب الكوخ ، وقلت لها :

ـ « من يمكنه النوم الآن ؟ سأذهب لاستكشاف القرية قليلاً .. »

ـ « خذ الحذر إذن .. نحن لا نعرف ماذا يدارون هناك .. »

وكنت قد دسست قدمى فى فردة الحذاء اليمنى ثم اليسرى .. وفجأة .. آيييييى !!

شعرت بألم حارق يمزق بطن قدمى ، وفى الظلام سمعت الفحيح الغاضب الشرير ، وسقطت على الأرض أحاول أن أتبين ما حدث لى .. تبًا لهذا الظلام ! أريد نورًا .. أريد أى نور !

ـ « ماذا دهاك ؟ »

ـ « لا أدرى .. ألم غريب ! »

وحاولت النهوض من جديد لكننى تعثرت فى قدم (بودرجا) الكبيرة فسقطت .. صوت احتكاك غريب ..

كان صراخى قد أيقظ (براكستون) فمد يده يشعل كشافًا كهربيًا .. وسلطه علينا وهو يفرك عينه بكفه الحرة .. كان ما رآه وما رأيته هو ما يلى : أنا على الأرض أعتصر قدمى اليسرى وأئن .. أمامى على

بعد مترين أفعى فى طول المسطرة المدرسية ، تلتف حول نفسها على شكل رقم 8 العربى الشهير .. ولا تكف عن حك حلقاتها ببعضها محدثة ذلك الصوت الحرشفى الغريب .. لقد كانت الخبيثة متكومة حول نفسها فى حذائى طيلة الليل !

هب (براكستون) من رقدته وصاح :

ـ « لا تتحرك ! هذه منشارية الحراشف ! وهى سريعة التهيج عصبية جدًا .. وتهاجم أكثر من مرة »

والتقط جربنديته الثقيلة التى يضعها جواره فى أثناء النوم ، ورفعها فى الهواء ثم هوى بها على الزاحف البشع .. تلوت قليلاً ثم همدت وتحولت إلى حبل عديم الحياة ملقى على أرض الكوخ .. هذا هو أول درس تتعلمه فى إفريقيا وأول درس تنساه : لا تضع يدك ولا قدمك فى أى شىء ـ حتى قفازك أو حذائك ـ ما لم تتأكد أولاً من أنه نظيف تمامًا ..

قال وهو يركع ليتفحص باطن قدمى :

ـ « هذا السم هو أخطر وأسرع سم بين سموم الأفاعى .. »

قلت له فى غيظ وأنا أتحسس الجرح المؤلم :

ـ « أريد رباطًا ضاغطًا أولاً .. لاتضيع الوقت فى وصف وضعى الرائع .. »

كانت (برنادت) أسرع منه تصرفًا ، وجاءت بخرقة لا أدرى أين وجدتها ، فربطتها بإحكام حول ساقى .. المشكلة أن هذا الظلام الكريه لا يعطينا حرية الحركة ولا التصرف .. نريد نورًا ساطعًا كإضاءة الأفراح .. لاوقت للظلال الشاعرية هنا .. وراحت (برنادت) تفتش عن المصل فى حقائبنا وهى تسب وتلعن من فرط العصبية .. فى النهاية قلبت الحقائب كلها على الأرض وراحت تركل ما بها .. وسرنى أنها كانت تبكى ..

هنا سمعنا الصوت الهادئ قادمًا من مكان ما :

ـ « لاتضيعى الوقت .. إن سم ذات الحراشف لا يجدى معه المصل ! »

لم أنظر إلى مصدر الصوت ، وقلت فى ضيق :

ـ « لا بأس يا سيدة (ميرا) .. هل ترين أن أنتظر الموت بلا حراك ؟ نحن على الأقل نحاول أن نفعل شيئًا على سبيل تزجية الوقت .. »

ـ « إذن افعلوا الشىء الصحيح .. »

ثم مدت يدها فى السارى الذى تلبسه ، وأخرجت شيئًا صغيرًا أسود .. بدا لى كأنه ظفر إصبع ، وقالت :

ـ « قرص الجاهار مورا .. سيؤدى الغرض .. »

وعلى ضوء الكشاف المتراقص ، ركعت على ركبتيها وألصقت القرص فوق موضع الجرح ، وراحت تنظر لى باسمة فى مزيج من الخبث والوداعة .. وقالت :

ـ « سيعمل الآن .. ولكن كيف نسيت أن تنفض حذاءك قبل أن تنتعله ؟ فى السافانا يغدو هذا نوعًا من الانتحار .. والآن ... »

سقط القرص أخيرًا على الأرض ، فقالت (ميرا) :



وعلى ضوء الكشاف المتراقص ، ركعت على ركبتيها وألصقت القرص فوق موضع الجرح ، وراحت تنظر لى باسمة فى مزيج من الخبث والوداعة ..

- « تم ! سقوط القرص يعنى أنه امتص السم .. هذا القرص يستعمله حواة الأفاعى ، وهو مستخرج من ضفدع العلجوم الأصفر .. نحن نملح العلجوم وندفنه أسبوعًا فى الطين حتى يسود .. بعدها يصير صالحا .. »(*)

ثم مدت يدها وأخرجت قرصًا آخر أسود ، وقذفته فى راحتى ، وقالت بخبث :

- « ربما تحتاج إليه يومًا ما ! »

ثم نهضت متجهة للباب ، فسألتها (برنادت) فى لهفة :

- « لحظة أيتها الساحرة .. هل هذا كل شىء ؟ »

استدارت (ميرا) وقالت بطريقتها الثعبانية المعتاده :

- « لست ساحرة .. وقد تم كل شىءَ .. »

(★) كل ما ذكر هنا عن الأفاعى وحواتها صحيح .. والعادة عمومًا فى (سفارى) أن تكون المعلومة صحيحة والحدث تخيليًا..

ـ « لن نعطيه مصلاً ولا أى شىء آخر ؟ »

ـ « لاتفسدوا جمال نهر السحر بحجارة من علم ناقص تلقونها فيه ! »

ثم نظرت إلى (براكستون) وقالت بلهجة أقسم إنها جمدت الدماء فى عروقنا جميعًا :

ـ « لو كنت مكانك لدفنت هذه الأفعى بعناية حتى لايراها قومى .. إن قتل الأفاعى فى هذا المكان عمل لايقل خطرًا عن سم الأفاعى ذاتها .. كثيرون فعلوا مافعلته أنت لكنهم لم يمنحوا فرصة كى يداروا مافعلوه ، وعندها كانوا يفضلون لو تحملوا فى صمت وصبروا !! »

وحين توارت عن أبصارنا عادت (برنادت) تكرر فى إلحاح :

ـ أنا غير مقتنعة بهذا الهراء .. سأعطيك المصل .. »

ـ « لاداعى يا (برنادت) .. »

ـ « قلتها وأنا أحاول النهوض ..

ـ « أنت تعرفين كما أعرف أن هذه المرأة تعرف ماتفعله ، وإن سم الأفعى قد تلاشى من جسدى فعلاً .. أعرف هذا وأوقن به ! »

* * *

٨ ـ المستودع والأصلة وأشياء من هذا القبيل ..

يوم آخر مر بنا هنا فى هذا المكان .. يوم بلاطائل طبعًا سوى ما يهم خبراء الأجناس ..

جلست مع رجالهم ، وجلست (برنادت) مع نسائهم ، وبدا أنهم منبهرون بكل ما نملك أو نعرف .. راحت النسوة يتحسسن ثياب (برنادت) ، حتى ليوشكن على سؤالها عن الترزى الذى تتعامل معه ، أما الرجال فقد أحبوا السماعة وجهاز الضغط كثيرًا .. لا أحب أن يضع أحدهم سماعتى فى أذنيه المليئتين بالصماخ ، لكن هذه الأشياء أقوى منا .. راحوا يسمعون دقات قلبى وقلب بعضهم البعض ، ويضحكون ..

الحق أن هؤلاء القوم كانوا بدائيين بالفعل ..

من الواضح للقارئ الذكى أننى لم أمت أو أمرض .. إما أن الأفعى لم تكن سامة ، وإما أن (ميرا) بالفعل ....

لكنى لست نادمًا على ذلك .. أنا حى املأ الأبعاد الأربعة وأتنفس وأحلم وأخاف ..

وعند الغروب جاء (بودرجا) لنا حيث جلسنا فى مكاننا المعتاد جوار البئر ، وقال وهو يمضغ شيئًا كعادته :

ـ « البئر ! »

صحت فيه غير مصدق :

ـ «لكن النسوة كن يملأن الجرار من هنا .. مستحيل ! »

ـ « ليس هذا البئر .. بل الآخر .. يوجد بئر جوار سور القرية وهم يتلون أدعية غامضة عند المرور جواره .. لاحظت أنه خال من الماء .. بل هو مزود بخدعة تمويه لا بأس بها .. »

* * *

هنا تدخلت (برنادت) فى حيرة :

ـ « عم تتكلمون بالضبط ؟ »

قلت لها باسمًا :

ـ « كان هذا اقتراحك .. لاتوجد أفاع فى هذه القرية على الإطلاق باستثناء تلك التى تسللت إلى حذائى .. لابد أن هؤلاء القوم يحتفظون بأفاعيهم فى مكان خفى .. وبينما نحن هنا نثرثر معهم ونمرح ، أرسلت (بودرجا) ليراقب سلوكهم بعناية .. ويبدو أنه استطاع التوصل إلى مخزن أفاعيهم .. »

ـ « وهل يعنى هذا شيئًا ما ؟ »

قال (براكستون) فى حماسة وهو يرتجف كالعادة :

ـ « يعنى أن علينا التسلل إلى هناك .. أشعر بأن (ميرا) لن تقدم لنا عونًا لو سألناها .. »

ـ « وهل تقترح عمل شىء ؟ سد البئر مثلاً ؟ »

ـ « ليس هذا من شأننا .. سنتأكد من الأمر ، وبعدها نقدم تقريرنا للحكومة .. سيحتاج الأمر إلى تدخل الشرطة وربما الجيش .. لابد من طرد هؤلاء والتأكد من عدم عودتهم ثانية .. »

ارتجفت (برنادت) تقززًا وهى تتذكر :

ـ « الحق أننى لم أحب تلك المرأة قط .. هل رأيت الطريقة التى نصحتك بها بالتخلص من الأفعى ؟ »

كنت أتوقع هذا ، فقلت مداعبًا :

ـ « هناك واحدة قالت إن (ميرا) أرق وألطف مخلوقة عرفتها فى حياتها .. إن الزمن يغير البشر .. »

ـ « وربما يجعلهم أكثر نضجًا واستنارة .. »

لكننى لم أخبرها كم أنا مفتون .. كيف تسللت (ميرا) إلى كوخنا كالحلم الجميل ، وكيف أمسكت بقدمى وثبتت القرص عليه .. وكيف بدت واثقة عليمة ، حتى شعرت بأننى أترك لها نفسى بكل ارتياح .. ولو طلبت منى أن أتبعها إلى آخر الأرض لحظتها لفعلت .. غريب هذا .. يوجد إذن فارق كبير بين الحب والافتتان .. بين الهيام والسحر .. وكلاهما لايبطل الآخر ولايتعارض معه ..

قال (براكستون) مقاطعًا خواطرى :

ـ « هل لاحظتم ؟ لم نسأل أنفسنا لحظة عن الكيفية التى عرفت بها المرأة بما حدث ، ربما قبل أن نعرف به نحن .. فجأة ظهرت فى كوخنا فاهمة لكل شىء ، إيجابية متخذة قرارها .. كيف ومتى عرفت ؟ هل تتجسس علينا ؟ لم يتساءل أحد ببساطة لأننا جميعًا نملك اتفاقًا ضمنيًا أن هذه المرأة تعرف كل شىء .. امرأة كهذه ستتصرف بهذا الأسلوب بالضغط ! »

ساد الصمت ، ثم قالت (برنادت) :

ـ « ليكن .. من الأحمق الذى سيهبط فى البئر ؟ »

قلت فى كبرياء :

ـ « وهل هناك سواى ؟ (بودرجا) مذعور متطير كدجاجة ، و(براكستون) كهل هرم ، وأنت فتاة .. لا توجد خيارات أخرى ، لكنى أبغى تدعيم ظهرى .. لابد من أحدكم خارج البئر .. »

قالت (برنادت) منهية الموضوع :

ـ « هذا سهل .. سأكون أنا ذلك الرجل .. »

ونظرنا إلى قرص الشمس الذى انحدر غربًا ، وسط دوامة من السحب التى هى مزيج من الأرجوانى والأزرق والوردى .. تعاهدنا أن تكون هذه ليلة حافلة ..

★ ★ ★

يطلقون عليه عام الأفاعى ..

لا أدرى السبب حقًا لكنهم ـ على الأرجح ـ محقون .. إذ كيف يمكن للمرء أن يصف عام الأفاعى إلا بعام الأفاعى ؟

وكنت أقف مع (برنادت) الآن خارج سور القرية ، الذى هو ليس سورًا بل مجموعة من أعواد البامبو مغروسة متلاصقة .. وكان البئر أمامنا ، وكانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل لو كان للساعات قيمة هنا .. ولحسن الحظ كان القمر يعفينا من استخدام أية أضواء مزعجة ..

وقالت (برنادت) وهى تتلفت حولها بحذر :

ـ « لا توجد حراسة من أى نوع .. إنهم حمقى .. »

ـ « فى كل مرة تقال هذه العبارة فى الأفلام يتضح أنه كمين .. وأن اللحظات التالية كارثة .. »

ـ « لهذا لا تجازف .. الق نظرة والتقط صورة أو اثنتين ثم عد إلى هنا .. لاداعى لمغامرات سخيفة تمليها عليك حماسة الشباب وخرقه .. »

ـ « سأتذكر هذا .. »

وانحنيت على حافة البئر حيث كان المستوى العلوى للماء .. ومددت يدى ببطء حتى وصلت إلى القاع الخادع الذى صنعوه للبئر على عمق متر .. إنه لم يخدع (بودرجا) لكنه يخدع أى مراقب غير مدقق .. والوضع ـ إن كان وصفى غير مفهوم ـ يشبه أن تسد برميلاً عميقًا بوعاء ملىء بالماء .. كل من يتعامل مع البرميل ، يرى الماء فى الوعاء وربما يشرب منه ، حاسبًا أنه يتعامل مع البرميل ككل .. حيلة ليست رديئة طبعًا إلى أن يفكر أول عابر سبيل فى أن يستحم فى البئر أو ينزل فيه دلوًا .. عندها يكتشف كم أن المياه ضحلة والقاع قريب ..

كان القاع المزيف هنا مسطحًا من الخزف قطره ثلاثة أمتار ، وكانت هناك قطعة بارزة منه تسمح بأن ترفعه منها ، فلما رفعتها انسكب الماء كله إلى أسفل ، فلم تبق قطرة واحدة منه ..

وبمعونة (برنادت) حملنا القاع المزيف الخزفى ووضعناه جوار البئر .. أخيرًا نرى القاع الحقيقى الذى تقود إليه درجات منحوتة فى الصخر ..

على ضوء الكشاف يمكنك بسهولة أن تدرك أنه على بعد خمسة أمتار ، وأنه يقود إلى نفق جانبى كعادة كل هذه السراديب .. من الأحمق الذى يدخل النفق الجانبى ؟ أنا طبعًا .. ماذا سيجده ؟ سيجد آلاف الأفاعى إن لم نكن مخطئين !

لماذا أفعل هذا ؟ لأبرهن لنفسى على أننى أستطيع أن أفعله .. ولأسباب كهذه يقفز بطل الدراجات البخارية (إيفل كنيفل) فى الهواء عبر النيران .. فقط ليبرهن لنفسه ..

* * *

قلت لها :

- « خذى الحذر .. لا أحب أن أصعد لأجدك جثة هامدة .. لا تتصرفى بحماقة أو بذكاء مبالغ فيه .. »

وبدأت أهبط إلى قاع البئر ..

أرنو لأعلى فأرى وجه (برنادت) القلق ينظر لى .. كان لابد من واحد يبقى فى الخارج لينذر الآخرين أو يفعل شيئًا ما .. لكنى تذكرت على الفور موقفًا مماثلاً من رواية (مون فليت) أو (آلة الزمن) ..

أخيرًا استقرت قدماى على الأرض ، فأضأت الكشاف .. من الآن لابد أن آخذ الحذر .. يوجد احتمال لابأس به أن أدوس على أفعى فى أية لحظة ..

كان الممر الجانبى مظلمًا ككل الممرات الجانبية ، وقد أضأت الكشاف ورحت أقذف حزمًا من النور على السقف والجدران .. لا شىء .. إن المكان يوحى بالقدم .. لكنه منحوت .. لا شك فى هذا .. لقد نحت هؤلاء القوم البئر

والممر الجانبى نحتًا ، ولابد أن هذا حدث من عشرات عشرات السنين ..

رحت أمشى فى الممر ، وأنا أقذف حزم الضوء كأنها قذائف على الجدران ، وكأنما أضرب بها ثعابين وهمية هنا أو هناك .. وفى النهاية كان هناك منحنى إلى اليمين .. دخلته وأنا أذكر نفسى .. لايوجد سواه حتى الآن .. أريد أن أستطيع العودة بمجرد أن أجد أول ثعبان ..

الرائحة كريهة مقيتة تسبب الدوار .. إن هذا لحق .. إن الثعابين تتبرز ككل كائن حى ، لكن من سمع عن براز ثعبان أبدًا ؟ أخيرًا أجد ما يشبه الأقفاص .. أقفاصًا حقيقية تمتد من الأرض إلى السقف الحجرى ، وقد صنعت قضبانها من الحديد الصدئ .. وأدركت أن الرائحة الكريهة تفوح منها .. الحقيقة أنها قفص واحد كبير تم تقسيمه إلى ثلاثة أقسام متساوية ..

لا أدرى نوع الوحش الذى يحبسونه هنا ، لكنه قوى ويقرب طوله من طول الإنسان ..

قربت الكشاف أكثر فرأيت ما بداخل القفص ..

وبصعوبة كتمت صرخة ..

★ ★ ★

٩ ـ افتتــــان !

فيما بعد خرجت من البئر .. صعدت الدرجات الحجرية وقدماى ترتجفان ، وصحت مناديا (برنادت) بذلك الهمس العالى الشبيه بالصراخ :

ـ « بست ! (برنادت) ! »

أطل رأسها من أعلى كأنما تتساءل عما هناك ، فقلت لها :

ـ « يجب أن ترى هذا ! »

ـ « لكن من الخطر أن ... »

ـ « أريد شاهدًا معى .. الأمر لا يحتمل الجدال .. هلمى ! »

هرعت تلحق بى ، وألف سؤال فى ذهنها .. وراحت قدماها تنحدران عبر الدرج .. فى النهاية وقفت على القاع معى تنظر إلى الممر الجانبى ، وسألتنى همسًا :

- « ماذا وجدت ؟ »

- « وجدت باب الجحيم مفتوحًا .. هذا المكان ليس قرية عادية .. وهؤلاء القوم ليسوا مجرد أفارقة .. إنهم شياطين !! هذا أقل ما يوصفون به .. »

- « سأكون شاكرة لو ... »

- « تعالى وسترين بنفسك .. »

ورحت أركض عبر الممر الذى اعتدت تفاصيله ، أما هى فلم تجد مفرًا من أن تتبعنى .. وحاولت أن تضع قدمها حيث تجد قدمى لأن فكرة الثعابين هنا وهناك كانت تؤرقها ..

أخيرًا وصلنا إلى بداية الممر على اليمين ، لكننى اتجهت إلى الجدار على اليسار وعالجت صخرة بارزة فيه ، فانفتح كأنما يدور حول محوره ، ومن الداخل دوى الفحيح الغاضب .. سمعته حتى قبل أن ترى ما بالداخل بشكل كامل .. وعلى ضوء الكشاف رأينا أبشع ما يمكن أن تراه العين .. مجموعة لاحصر لها من الأفاعى على

أرض لم يعد ممكنًا أن تراها .. لولا مافى ذلك من مبالغة لقلت إن سمك الطبقة كاد يقرب من المتر ..

كيف ومن أين جاءوا بكل هذه الأفاعى ؟ كيف يطعمونها ؟ وما المعجزة التى تمنعها من التهام بعضها البعض ؟ منظر بشع خاصة لو أضفنا أننى من الأشخاص الذين لا يطيقون رؤية أى حشد من الثقوب أو البروزات المتجاورة ، كمسدسات العسل فى خلية نحل ، أو آثار مئات الأحذية المطبوعة على الوحل الطرى .. إن مشاهد كهذه تجعل بصيلات شعرى تنتصب مع شعور هو مزيج من القشعريرة والاشمئزاز ..

وقالت (برنادت) وهى تغطى فاها :

- « يا للبشاعة !! »

وهو تعليق زائد لأن الموقف يفسر نفسه بلا كلمات ..

وواربت الباب الحجرى ، وأشرت لها إلى الممر على اليمين .. وببطء بدأنا نتقدم نحوه على ضوء الكشاف ، ولاحت الأقفاص بمنظرها الكئيب فأطلقت شهقة .. لكنها لما قربت رأسها أكثر فهمت ما هنالك ..

كان هناك فتى أسود يقف فى الظلام وعيناه تلمعان ، كان الذعر قد قضى على أى عقل لديه .. أحاله إلى حيوان مذعور غير قادر على الكلام .. فقط كان يقف هناك فى وسط الزنزانة يرتجف ..

صوبت الكشاف إلى الزنزانة المجاورة ، وكانت خاوية ..

الزنزانة الأخيرة كان بها رجل وشىء آخر .. لم تكن خاوية .. لكن ليتها كانت كذلك ..

كان هناك ثعبان عملاق هائل الحجم يلتف حول نفسه .. أنا رأيت الثعابين العملاقة فى السينما وحديقة الحيوان ، لكنى واثق من أننى لم أر هذا الحجم من قبل .. كان كسولا كما ينبغى أن يكون ، لكن الفم كان مفتوحا لأنه كان مشغولا بالتهام وجبة ، والوجبة يمكن أن تعرف نوعها ، لأن الثلث العلوى من جسد رجل - من أسفل الصدر إلى ما فوق - كان يخرج من هذا الفم ..

برغم الظلام يمكن أن أميز وجه الرجل ، وأعرف أنه

أصلع الرأس وأن له عينا عوراء .. وأنه ميت .. ميت من الضغط أو من الصدمة العصبية لا أدرى .. وقد خرجت من تحت جثته أسطوانة متحركة غريبة المنظر ، لم ألبث أن تبينت أنها القصبة الهوائية للثعبان .. فتذكرت ما قرأته مرارا عن تلك الثعابين العاصرة ، حين تبتلع جسدًا يفوقها حجما ، من ثم تتفكك عظام الفك لتجعله أوسع ، وتخرج القصبة الهوائية لتأخذ حاجتها من الهواء مباشرة ..

صرخت (برنادت) وهى ترتجف كورقة :

- « هذه أناكوندا !! أناكوندا !! »

- « بل هى أصلة صخرية ! »

كان هذا هو صوت (ميرا) بالطبع ..

لقد خرجت من مكان ما فى الظلام وهى تحمل مشعلا ، وكانت ترتدى ساريًا أزرق جعلها فاتنة كالموت .. عيناها تلمعان فى ضوء اللهب كأنما هما جذوتا نار بدورهما ..

وأردفت وهى تتكئ على قضبان القفص :

ـ « لا توجد أناكوندا فى إفريقيا .. الأناكوندا نوع من البوا ، وهى لا توجد إلا فى العالم القديم .. »

صاحت (برنادت) وهى تتراجع للوراء كأنها رأت ثعبانا (لماذا يبدو هذا التعبير سخيفا الآن ؟) :

ـ « أنتم .. أنتم تقدمون قرابين بشرية لهذا الثعبان ؟! »

ـ « ومن قال العكس يا ملاكى ؟ من حسن الحظ أنها لا تأكل إلا كل أسبوعين ! وأكلها على كل حال عملية مرهقة لأنها تبتلع هذا الرجل منذ أربع ساعات ، ويبدو أن أمامها ساعتين أخريين .. »

ـ « وهؤلاء البؤساء ينتظرون مصيرهم ويرون بعيونهم ما حدث للآخرين .. »

ـ « ليس من عملنا الترفيه عن الضحايا أو منحهم السلام .. نحن قوم عمليون ، وما يهمنا فقط هو أن يشبع (الطوطم) الخاص بقبيلتنا .. رمز وجودنا وانتمائنا وكل ما نعيش لأجله .. »

ـ « لا بد أنك تمزحين .. »

قالت فى براءة وادعة :

ـ « أنا لا أمزح أبدا بعد منتصف الليل .. »

وأشارت لى وقالت بدلال :

ـ « هل شرحت لها هذا يا (علاء) ؟ »

نظرت إلى (برنادت) وقلت فى حماسة :

ـ « (ميرا) لا تمزح أبدًا .. إنها مخلوقة ذكية فاتنة وتعرف كل شىء .. وإلا ـ بربك ـ كيف استطاعت أن تقنعنى باستدراجك إلى هنا ؟! »

* * *

ـ « أنت تعمل معها ؟! »

قالتها فى غباء وذهول معا فابتسمت (ميرا) وقالت :

ـ « لا تظلمى الطبيب الشاب .. أولاً أنا لا يمكن مقاومتى .. ليس هذا بوسع رجل على الأقل .. ثانيًا أنا أعمل بمعونة بسيطة من القرص الذى عالجته به أمس .. وعلى كل حال لم أسيطر عليه إلى الحد الذى يجعله يقتلك فاطمئنى .. »

وراحت تمرر ظهر يدها على القضيب الحديدى فى استمتاع ، وأردفت :

- « طبعًا أنتم حمقى إذا حسبتم أنكم ستصلون إلى هنا من دون علمى .. أنا الذى أسمع كل همسة من همساتكم .. فقط أردت أن ألعب هذه اللعبة البسيطة مع الطبيبة الحسناء .. »

سألتها (برنادت) وهى تتقهقر باستمرار إلى الوراء :

- « أنت من جاء بهذه الأصلة من الهند ؟ »

- « وددت لو كان لى هذا الشرف ، لكن من العسير أن أنقل شيئًا بهذا الحجم عبر الجمارك والحدود .. ثم إن الأصلات الهندية لا تبلغ هذا الحجم أبدًا .. إن طول هذا الثعبان عشرة أمتار ، وكما ترين هو قادر على ابتلاع رجل ، وهذا شىء نادر وليس شائعًا كما تعتقدين ..

« هذا الثعبان يبلغ من العمر أربعين عامًا - أى أنه من شيوخ الثعابين - وكانت أمى أول من عرف بوجوده ..

لقد نحت فنانو القبيلة هذا القبو وهذه الممرات ، وصنعوا الأقفاص من خمسين عامًا ، وما لا يعرفه أحد أنه لابد من أن يتواجد من يعنى بالثعابين حتى نعود إليها كل عشر سنوات .. وهكذا تنقسم القبيلة إلى مجموعتين : مجموعة قليلة العدد تعيش أكثر الوقت فى قاع البئر ، مهمتها إطعام الثعابين والعناية بها ، ومجموعة رحالة تعيش فى (الجابون) ..

« السبب هو أن ثعابيننا لا يمكن نقلها عبر الحدود ، وفى الغالب لن تحتمل تجربة كهذه لو تمت ، خاصة ثعبان الأصلة الكبير .. وديانتنا تحتم أن نكون بعيدين عنه ، ولا نعيش فى نفس البقعة التى يعيش فيها ، وأن تكون عودتنا إليه كل عشر سنوات ، نوعًا من الترحال الدينى الذى يعيدنا إلى الجذور ..

« بالطبع لابد أن تصاحب هذا عملية إنعاش للأفاعى الصغيرة .. نحضر بعضها معنا ، وننشرها فى القرى المجاورة ، وهكذا يعرف الجميع أننا عدنا وأن عام الأفاعى قد بدأ ..

« هذه المرة الثالثة لى التى أقوم فيها بهذه الرحلة .. »

سألتها (برنادت) التى بدأت الدموع الآن تسيل من عينيها :

- « هذا الدين العجيب من وضع والدتك طبعًا ! »

- « والدتى كانت تؤمن بما تقول .. لكنها صاغت الهيكل الأساسى المعقد لما ينبغى أن يفعله المؤمنون .. ولهذا صارت الكاهنة لأنها أكثر الناس علمًا .. قبل والدتى كان هؤلاء القوم يعبدون الأفاعى لكن بشكل بدائى متخبط .. بعدها صاروا يفعلون الشىء ذاته لكن بطقوس معقدة تجعل الأمر يبدو لهم حقيقيًا .. »

ثم تنهدت كأنما تعبت من الكلام وقالت بلهجة آمرة :

- « والآن يا (علاء) يمكنكم العودة إلى وحدتكم .. »

صاحت (برنادت) :

- « غريب هذا ! لماذا لا تقتليننا وينتهى الأمر ؟ »

- « إن اختفاءكم سيجعل البلاد تنقلب رأسًا على عقب ، ولسوف يأتى الجيش ونحن لا نريده ببساطة .. »

- « لكننا سنتكلم .. أنت تعرفين أننا سنتكلم .. »

- « أعرف هذا .. إن الثرثرة ليست من عيوب الأفاعى لكن البشر لم يبرعوا بعد من هذا ، لهذا ستبقى الطبيبة الحسناء هنا .. ولسوف يظل رفاقك صامتين ، لأننا سنطعم بك الأصلة قبل أن يبيد الجيش ديانتنا .. هم يعرفون هذا ، ولسوف يكتمون السر جيدًا .. أنا لا أتوقع أن يستمر هذا للأبد ، لكن على الأقل إلى أن ينتهى عام الأفاعى ، كما يسمونه هنا .. »

هتفت (برنادت) وهى تستند إلى القضبان :

- « وتحسبين أن أحدًا لن يتساءل عن غيابى فى (سافارى) ؟ »

- « لا أحسب شيئًا على الإطلاق .. على أصدقائك أن يجدوا المبرر المقنع للآخرين .. هذه مشكلتهم لا مشكلتى .. أنا لا أطالبهم إلا بالكذب المحكم المتقن .. فهل هذا كثير ؟ »

هنا صرخت (برنادت) ووثبت للأمام ، لأن الأسود

المسكين الحبيس فى القفص مد يده يمسك يدها .. وكانت فى عينيه رسالة استغاثة مريعة ، كأنما يوشك على السقوط فى حفرة ويحاول التمسك بأول يد فى متناوله ..

ابتسمت (ميرا) وفتحت القفص الأوسط ، وكان مغلقًا بحبل مجدول ، عالجته حتى انفك ثم واربت الباب ، ونظرت لى وقالت :

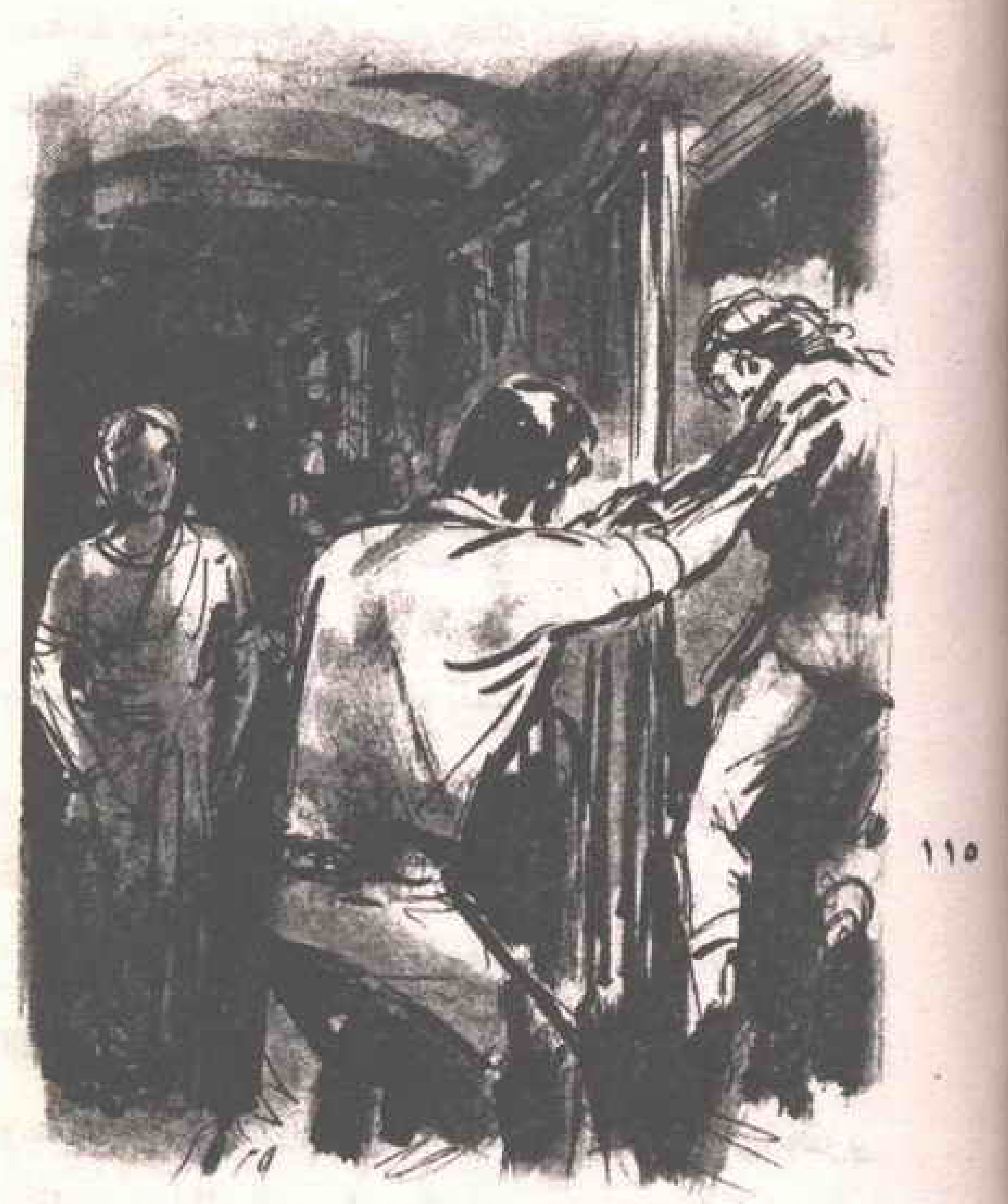
- « والآن يا (علاء) .. أرجو أن تضع هذا الملاك فى القفص .. »

تراجعت (برنادت) أكثر وصرخت :

- « (علاء) ! هل جننت ؟ هذه المرأة قد خدرت عقلك تمامًا ؟!! إنها مجنونة ! حاول أن ... »

لكنى أمسكت بمعصمها بحزم ، ودفعتها دفعًا إلى القفص ..

- « لن أقضى أيامى فى هذا الجحر بين سجين مجنون وثعبان !! »



لكنى أمسكت بمعصمها بحزم ، ودفعتها دفعًا إلى القفص ...

وغاضبة دامعة أنشبت أسنانها فى قبضتى حتى شعرت بدماء ساخنة تسيل هناك ، لكنى جررتها بمزيد من الغلظة ، وهى تقاوم أشرس مقاومة ممكنة .. جر .. دفع .. عض .. خدش .. جر .. جذب .. فى النهاية ألقيتها بالداخل وأغلقت الباب ، وناولتنى (ميرا) الحبل ، فربطته بعناية حول الباب ، ثم عقدت طرفيه أكثر من مرة ..

ولم أنس أن أنظر إلى (ميرا) وأقول :

ـ « لسوف تنجح فى فكه . أعطيها بضع ساعات بأسنانها وأظفارها ولسوف تنجح فى فكه .. »

اتسعت عينا (ميرا) السوداوان فى إعجاب تمثيلى ، وقالت :

ـ « أنت تفكر بعمق وهذا يروق لى .. لكن هذا الحبل أقسى مما تتصور ، ولا يمكن فكه بالأسنان وحدها .. على كل حال أعتقد أنه مازال عندى جنزير وقفل .. سأطلب من الرجال أن يجدوه صباحًا . والآن

عد لرفاقك وأخبرهم أو لا تخبرهم .. المهم أن تذكروا دائمًا أن الأصلة ستكون جوعى فى المرة القادمة وأن عليهم أن يفكروا مرتين قبل أن يثرثروا »

واتجهنا إلى مخرج الممر الرهيب ، ومعنا ضوء المشعل بينما (برنادت) تولول كالمجانين :

ـ « (علاء) ! لن تتركنى هنا !! (علاء) ! أنا أخاف الظلام !! ليس هذا الظلام الدامس ! »

قالت (ميرا) فى تأثر حقيقى :

ـ « يا للفتاة المسكينة ! تصور أن تظل وحدك فى هذا القبو المظلم ، وعلى بعد أمتار منك ثعبان عملاق يبتلع رجلاً ؟ لابد أن المكان يعج بأرواح كل من ابتلعتهم الأصلة .. إنها فتاة باسلة ، ولو تركت العنان لنفسى لأحببتها . ليس من الغريب فهم افتتانك بها .. »

قلت صادقًا وأنا أعينها على صعود الدرج :

ـ « لست مفتونًا بها .. أنا أحبها فقط .. »

ـ « لا يوجد فارق .. »

ـ « بل هناك فارق كبير .. »

ومن أعماق القبو ، وخلف القضبان ما زلت أسمع (برنادت) تصيح :

ـ « (علاء) ! أنا أخاف الظلام !!

ليس هذا الظلام الدامس ..

(علاء) ! افعل شيئًا يا أحمق !

حتى تلاشى صوتها تمامًا ..

* * *

١٠ ـ دعونا نفعلها !

وحين وقفنا فى الظلام خارج البئر ، أثار دهشتى أن أرى كل هذا الحشد من الرجال شاكى السلاح ..

كانت النصال تلتمع فى ضوء القمر ، مع العيون والأسنان .. وقلت لنفسى إننى كنت أحمق إذ حسبت أن أحدًا لم يشعر بنا .. لقد كانت القرية كلها تعلم ..

قالت (ميرا ـ جوران) وهى تصفق بيديها شيئًا بلغتهم ، لايحتاج إلى كثير من الترجمة : (خلاص ياجدعان .. كله يرجع) .. إن الصوتيات والإشارات تترجم أغرب اللغات وأكثرها غموضا ..

بدأ الرجال ينصرفون ، ووجدت أننى أقف معها وحدنا فى ضوء القمر الأزرق ..

قالت لى باسمة :

ـ « والآن يمكنك أن تعيد غطاء البئر المموه إلى مكانه .. »

انحنيت وفعلت كما قالت .. كان مجهودًا عنيفًا لم أكن أشعر بشىء .. وقالت وهى تتأمل المشهد :

ـ « لابأس .. فى الصباح تأتى النسوة ليعدن ملء الوعاء الخزفى .. نحن نفعل هذا كلما نزلنا إلى أسفل ، وحين نرحل يستخدم من نتركهم هنا هذه الفتحة للخروج والدخول ..

لحسن الحظ يتطير الأهالى هنا من أرضنا ، لهذا لم يحاول أحد أن يستعمل هذه البئر قط .. »

وراحت تدندن فى صوت خفيض منوم أغنية ما هندية .. تلك النغمات التى تفكك ذراتك ذاتها لتسبح فى أنهار حارة المياه ، بينما (تاج محل) يتوهج فى ضوء الغروب ، وتسبح رفات (طاغور) مع أمواه نهر (الجانج) ..

أغنية باللغة الأوردية لا أدرى كلماتها ، لكنها تصف ما أحس به بالضبط ..

وخطر لى أننى متعب حقًا وقد آن الأوان أن أستريح ..

قالت لى :

ـ « أنا أعرف ما تفكر فيه .. يمكنك أن تبقى هنا معى للأبد لو أردت .. »

ـ « أنا مفتون .. »

ـ « نعم .. نعم .. أعرف أن الافتتان يختلف عن الحب .. لكنك ستكون منا ، ولسوف تتعلم أكثر .. »

وتحسست بيدها الباردة جبينى وهمست :

ـ « أنت محموم .. »

ـ « وأنت متزوجة .. »

ـ « لقد توفى .. ولم يكن أول ولا آخر زوج لى ، وقد كان على كل حال مجرد رجل من هؤلاء البدائيين ، وإن كان زعيمهم .. هل تعرف أن الكاهنة تتزوج الزعيم دائمًا ؟ وإن كنت أنت تختلف .. أنت رجل متحضر يعرف الجمال والسحر ويقدرهما ، ويعرف كيف يعبر بلسانه عما يجول بفؤاده .. يوم تكون منا ستكون زعيمًا .. »

كنت مبهور الأنفاس ، وخطر لى أن العودة إلى ماكنت فيه حماقة .. العودة إلى عالم (سافارى) المعقد المتلاطم ، والوجوه الكالحة الكئيبة .. عالم بلا أفاع بشرية أو حيوانية ! تصور هذا ! أى سحر فيه ؟

وفى صمت افترقنا ..

عدت إلى الكوخ حيث ينتظرنى (بودرجا) و(براكستون) ، وأنا أفكر فى التبرير الذى سأقوله لهما ..

من مصلحتهما أن يصدقا .. لو لم يفعلا لاضطررت إلى إبلاغ (ميرا ـ جوران) كى تفعل شيئًا .. وعندها فإن غرفة الفئران ـ معذرة .. أعنى جب الثعابين ـ بانتظارهما بالتأكيد ..

* * *

دخلت الكوخ لأجدهما كما توقعت ساهرين متوترين فى الظلام ، وأضأت الكشاف وصوبته على وجهى ليريا من أنا ثم جلست على الأرض مبلبل الأفكار ..

أين أنا ؟ ماذا حدث ؟ لماذا فعلت هذا ؟ كيف غررت بـ (برنادت) ؟ يبدو أن مرأى الرجلين جعل نوعًا من السحر يتسرب من داخلى .. وراحت إرادتى تستجمع نفسها ، وتوجه الضربة تلو الضربة إلى جدار الهلوسة ..

ـ « أين (برنادت) ؟ ماذا حدث » ؟

ـ « هل رآكما أحد ؟ »

رفعت أناملى مضمومة بمعنى أن ينتظروا لحظة .. والتقطت أنفاسى ، ثم وجهت إلى (بودرجا) السؤال التالى :

ـ « من هو زعيم القبيلة ؟ هل قابلته ؟ »

بدت عليه الحيرة .. ثم قال فى غباء :

ـ « (مولا بوجو) العظيم .. هكذا يسمونه .. لا يلعب دورًا واضحًا هنا لأن السلطات كلها فى يد المرأة .. »

ـ « نعم .. نعم .. إنه يمارس دور زوج الملكة .. »

ـ « من السهل أن تتعرفه حين تراه لأنه .. »

واتسعت عيناه وهو يملس بيده على رأسه :

- « .. أصلع تمامًا .. وأعور كذلك ! »

- « هكذا !! »

★ ★ ★

برغم الظلام يمكن أن أميز وجه الرجل ، وأعرف أنه أصلع الرأس وأن له عينًا عوراء .. وأنه ميت .. ميت من الضغط أو من الصدمة العصبية لا أدرى ..

★ ★ ★

- « لقد توفى .. ولم يكن أول ولا آخر زوج لى ، وقد كان على كل حال مجرد رجل من هؤلاء البدائيين ، وإن كان زعيمهم »

★ ★ ★

كان رد فعلى بالغ السرعة ، وقد أدركت أننى تصرفت بحماقة لا تفسير لها سوى استلاب الإرادة .. صحت فى الرجلين المشدوهين :

- « هل لدينا قفازات بلاستيكية ؟ »

قال (بودرجا) الذى بدا على وجهه تمامًا ما يدور فى ذهنه :

- « نعم .. ولكن يا دكتور .. يا دكتور .. »

ومد يده إلى الحقائب فناولنى زوجًا منها فى كيس معقم .. مزقت الكيس وأخرجت محتواه ودسسته فى جيبى ، ثم صحت فيهما وأنا أبحث عن بضعة أشياء :

- « هلما معى ! إن الفرصة ذهبية قبل أن يفرغ من التهام وجبته وقبل أن يغلقوا القفص .. إنهم لا يتوقعون أن نتصرف بهذه السرعة المجنونة ، وهذه هى نقطة قوتنا الوحيدة .. »

كنت أعتقد الآن أنهما يعلمان ما أعلم ، وأن الأسئلة هى ضرب من السخف لا أكثر .. لهذا لم أقدم أية تفسيرات كان من العدل أن أقدمها .. قال (براكستون) وقد جحظت عيناه أكثر وراح يرمقنى فى ذهول :

- « هم لا يتوقعون ؟ »

ـ « البتة !! »

ـ « ومن هم ؟! »

ـ « لا وقت للشرح .. هيا بنا .. »

وهرعنا نركض بين الأكواخ المظلمة .. كنت واثقًا من أنهم واثقون من أنفسهم .. هذه نقطة مهمة .. كنت واثقًا من أن (ميرا) تعرف جيدًا أنها كسبت أحمق آخر (وأنا لا أجادل فى هذا كثيرًا) ..

أخيرًا نصل إلى البئر فأزيح غطاءه .. وأهرع على ضوء الكشاف إلى الداخل مع الآخرين ، غير مبال بصياح (براكستون) الذى راح يقول أشياء على غرار :

ـ « لكن الحكمة تقضى بألا ... »

لكنى لم أتكلم .. ومن داخل السرداب جاء صوت (برنادت) المتوسل الباكى من جديد :

ـ « (علاء) ! افعل شيئًا يا أحمق !

ليس هذا الظلام الدامس ..

(علاء) ! أنا أخاف الظلام !!

كانت ما زالت تتكلم .. لكنها بالتأكيد لم تتوقع أن يأتى الخلاص بهذه السرعة ..

ومشينا فى الطرقات المظلمة الملتوية ، حتى وصلنا إلى الأقفاص ، وصاح (براكستون) حين رأى (برنادت) :

ـ « الدكتورة (جونز) هنا .. ألن تحررها ؟ من سجنها هنا ؟ »

وصاحت هى فى هستريا كاملة :

ـ « إنه هو من .. هو من .. »

لكنى لم أعرهما اهتمامًا .. وجريت نحو القفص الأخير وأخرجت الخنجر الذى جئت به من الكوخ .. أعملته فى الحبل المجدول الذى أغلقوا به الباب ، وفتحته ..

ورأى الرجلان المشهد المخيف الذى وصفته من قبل .. فتراجعا إلى الوراء ، وهتف (براكستون) مرتجفا :

ـ « يا إله السماوات !! »

وصاح (بودرجا) واللعاب يتطاير من فمه انفعالاً :

ـ « إنه هو .. هو الزعيم كما وصفته لك !! »

كان الصدر كله قد غاب الآن فى صدر الثعبان ، وعما قليل يجىء دور العنق .. وهذا يعنى أن الجزء التالى سيكون مريحًا أكثر ، ولسوف يستعيد المخلوق شكل فكيه وقدرته على التنفس الطبيعى ..

لكنى أخرجت فردتى القفاز ، ووضعت واحدة منهما داخل الأخرى .. ثم ـ والأدرينالين يتدفق كالمجنون فى دمى ـ دخلت القفص .. لا لم أشعر بذعر لأن كل هذا الأدرينالين كان كافيًا لتحويل فأر إلى أسد .. لم أشعر بذعر لأنه لاوقت لهذا .. فلأفعل ما أزمعت عمله ثم أخاف كما يجب ..

كان الثعبان العملاق فى حالة سيئة ، ويبدو أنه شعر بى لكنه لم يكن قادرًا على الحركة .. إن الثعابين تكون فى أضعف حالاتها حين تلتهم وجبة هائلة الحجم كهذه .. وبسرعة حشرت القفاز حشرًا حول الطرف الظاهر من قصبته الهوائية تحت عنق الرجل .. كأننى سددت ماسورة مياه بغشاء من المطاط أحطت به طرفها ..

وجريت إلى الوراء خارجًا من القفص ، وأغلقت الباب وأمسكته بيدى ، بينما بدأ الجحيم .. راح الثعبان العملاق يجاهد من أجل الأوكسجين .. راح جسده الهائل ينتفض ولفاته تنفك وتتجمع من جديد ..

لكن الثعبان برغم قوته لايملك يدًا ينزع بها هذا الغشاء .. ولقد راح يضرب كل شىء بقوة كاسحة ، لكنه عاجز عن انتزاع الجثة من فمه .. عاجز عن تحرير تنفسه ..

راح الغبار يتطاير ودوى اللحم العضلى إذ يرتطم بالجدران الحجرية ..



وبسرعة حشرت القفاز حشراً حول الطرف الظاهر من قصبته الهوائية تحت عنق الرجل ..

تاج ! تاج ! برونج ! برونج !

الحق أنه مشهد لا يوصف ..

هرعت إلى قفص (برنادت) فمزقت الحبل .. لم تكن (ميرا) بلهاء .. الحق أنه حبل متصلب قاسى الألياف ومن المستحيل فعلاً فكه من دون سكين .. ثم جريت إلى القفص الأول ، لكنه كان مغلقًا بجنزير فولاذى وقفل .. ليس بوسعى إنقاذ هذا إذن ..

خرجت (برنادت) من قفصها ، وكان أول ما فعلته منطقيًا جدًا .. صفعتنى .. وراحت تسبنى بسباب لم أسمع بمثله من قبل .. لكن لا بأس .. الأمر يستحق ..

ـ« أيها الوغد ! إيها النذل !! »

ثم ركلتنى فى ساقى حتى كادت تحطم قصبتها ، لكنى جررتها من معصمها جرًا نحو الباب ، وصحت فى (براكستون) :

ـ « هل تذكر ما قلتـه لنـا عـن تحريـم قتـل (الطوطم) ؟ حسن .. نحن قتلنا طوطم هؤلاء القوم الآن ، وعلينا أن نفر كالفئران .. إن غضبهم سيكون عاتيًا ! »

* * *

١١ ـ لا تقتلوهم !!

يطلقون عليه عام الأفاعى ..

لا أدرى السبب حقًا لكنهم ـ على الأرجح ـ محقون .. إذ كيف يمكن للمرء أن يصف عام الأفاعى إلا بعـام الأفاعى ؟

* * *

كنـا الآن خـارج البئر ، ولا يوجد شىء يدل على أنهم سمعوا ..

وقال (براكستون) وهو يلهث انفعالاً ويبدو أنه على وشك الإصابة بـ (عاصفة الغدة الدرقية) التى تحكى عنها كتب الطب ، ولم أرها قط :

ـ « ما معنى هذا ؟ نحن لا نعرف ما تعرفه .. »

ـ « يمكن أن أحكى كل شـىء فـى دقـائق .. لكننـا بحاجة إليها الآن .. فلنفر .. »

ـ « نفر إلى أين ؟ هل جننت ؟ »

وأشار بيده إلى المشهد المهيب الذى لم ألحظه حتى هذه اللحظة .. كانت هناك مساحة عارية من الأرض، بعدها تبدأ السافانا ـ وارتفاعها يصل إلى الخصر ـ تمتد إلى ما لانهاية فى ضوء القمر .. يبدو أن القوم هنا أزالوا رقعة حول قريتهم كى يروا الوحوش وهى قادمة ..

ـ « لا أحد يمشى فى السافانا ليلاً وبلادليل .. هذا انتحار، وهذه الأعشاب يمكن أن تدارى عشيرة أفيال .. »

نظرت إلى القرية النائمة خلفنا ، وتخيلت الأهالى خارجين إلينا بالحراب والمدى والغضب الوثنى المجنون فى عيونهم ، ونظرت إلى السافانا المظلمة، وتصورت أسرة الأسود التى تتشاجر على أشلاء (برنادت) .. وخطر لى أن الاختبار عسير بعض الشىء .. لاتقل لى إن خطر السافانا ليس مؤكدًا .. إنه مؤكد .. أنا أعرف أنه مؤكد ..

لا بد من إعادة التفكير ..

لا بد ..

* * *

لما استقر بنا المقام هناك ، بحثت فى جيبى حتى وجدت بعض قطع الحلوى والبسكويت ، فناولتهم إياها ، وقلت هامسًا :

ـ « أقترح أن نقتصد فى هذه المأكولات .. وقت طويل سيمر ونحن هنا غير قادرين على الخروج .. وللأسف لم يكن معى سواها .. »

ساد الصمت وراح كل واحد يقضم ويلوك فى الظلام ، وبعد قليل كان (براكستون) أول من تكلم .. قال لى :

ـ « لماذا قتلت الثعبان ؟ كان بوسعنا إنقاذ الدكتورة (جونز) والفرار كما نفعل الآن .. دون أن نحرك بركان الغضب لدى هؤلاء .. أنت تتصرف بحماقة أحيانًا .. »

قلت وأنا أحاول ألا أنفعل :

- « لسببين .. السبب الأول إنسانى فحواه ألا يبتلع هذا الوحش إنسانًا آخر بعد اليوم .. لاتنس أنه كان يبتلع عند المساء من كان زعيم القوم صباحًا .. هذه فكرة قاسية ولا تروق لى ، ومن الواضح أن هذه الهندية لا تملك ذرة رحمة .. السبب الثانى عملى جدًا فحواه أننا لو سقطنا فى أيديهم - وهذا وارد فى كل لحظة الآن - فلن تكون نهايتنا أن يبتلعنا هذا الشىء المفزع .. أعتقد - وأنت توافقنى - أنها ميتة من أبشع أنواع الموت وأكثرها عبثية ومهانة .. »

قالت (برنادت) وكانت قد بدأت تفهم وتغفر :

- « السبب الثالث هو الاستهانة بهذا الطوطم .. مادام هؤلاء المخابيل يعبدونه فليروا كيف أنه يموت .. يموت بطريقة مضحكة سخيفة لا تتجاوز قفازًا بلاستيكيًا .. لقد فعل (علاء) ما كان أى واحد آخر سيفعله .. »

وسمعنا صوت خطوات ، فهمست (برنادت) منذرة كى نخرس ..

- « ششششش ! »

وسمعنا الأرجل تتدافع فى الممر ، وسمعنا من يصرخ .. من ينادى الآخرين .. لقد عرفوا .. لقد وجدوا طوطمهم العزيز مخنوقا .. والأسيرة هربت ..

ثم بدأ الجحيم .. صراخ .. عواء .. أنين .. لطم خدين ..

استمر هذا كله ربع ساعة ، ثم سمعنا صوت (ميرا) - يبدو أنهم نادوها على عجل - تنشد بصوت عميق رخيم حزين ، وكلما أنهت مقطعا من إنشادها صاح القوم وهم يضربون الأرض بأقدامهم : (جولو !!) .. هذا نوع من الحداد لا شك فيه ..

ثم دوى صوتها الرفيع مجلجلاً يأمر الرجال بشىء ما .. وسرعان ما راح هؤلاء يتصايحون ويجلجلون فى حماسة ، وبدأت الأصوات تخفت

ببطء .. واضح أنهم يغادرون القبو .. لماذا ؟ بحثًا عنا طبعًا .. سيقلبون كل حجر فى القرية .. ولسوف يدخلون السافانا فى مجموعات كأنهم يصطادون أسدًا هاربًا ..

وارتجفنا فى توتر .. قشعريرة غمرت أجسادنا كأننا جسد واحد ، ونحن ندرك بوضوح مصيرنا لو وجدنا هؤلاء .. لن يتركوا لنا فرصة للهلع .. وهمس (بودرجا) فى أذنى :

ـ « لقد أمرت الرجال بإطلاق الثعابين فى السافانا وكل أرجاء القرية .. »

ـ « هذا أقل ما تفعله .. »

كنا ـ كما خمنت أنت ـ قد عدنا إلى البئر ، وتوارينا فى سرداب جانبى ضيق بعد غرفة الأقفاص إياها .. ثمة فتحة فى الجدار الصخرى سمحت لنا أن ننحشر كيفما اتفق هناك وقدرت أن هذا آخر مكان سيخطر لهم أن يبحثوا عنا فيه .. المفترض أننا الآن نشق طريقنا

وسط السافانا .. لا أحد يتصور أننا مخابيل إلى حد العودة للاختباء فى البئر بعد هذا كله ..

لقد بقيت ساعات على عودة الطائرة الهليكوبتر ، ولو استطعنا أن نظل أحياء بشكل ما ، فلسوف نلحق بها ..

ونعود إلى (سافارى) بعد هذا الجحيم ..

لا أدرى لماذا لم أعد أكره (باركر) إلى هذا الحد ..

* * *

مرت الساعات بطيئة بطيئة ..

من حين لآخر كنا نسمع من يدخل القبو ، ولسبب لا أفهمه .. لكنى عرفت من الأصوات أن هؤلاء القوم صاروا فى حالة انفلات أعصاب كاملة .. لكن لحسن الحظ لم يخطر لهم أننا قد نكون هنا ، ولم يكن لديهم كلاب ـ وهذه كانت ستشم رائحتنا بسهولة ـ لأن الكلاب لا تعمل جيدًا فى وجود الأفاعى ..

فجأة شهقت (برنادت) ورفعت يدها إلى وجهها ..

همست فى أذنها :

ـ ماذا هنالك ؟

ـ « أفعى ! لقد عضتنى ! »

أضأت الكشاف وصوبته إلى الأرض ، فوجدت أفعىَ (راسل) الشهيرة خالدة الذكر تنسل هناك ، فلم أجروْ على تغيير مكانى لأقتلها .. مزقت منديلى بأسنانى ، وربطه بإحكام حول معصم (برنادت) ..

ولكن ماذا نفعل الآن ؟ ليست معنا أمصال ولا ...

ثم تذكرت ..

* * *

ـ « ربما تحتاج إليه يومًا ما ! »

ـ « لا تفسدوا جمال نهر السحر بحجارة من علم ناقص تلقونها فيه ! »

* * *

ـ « لا نضمن هذه الأقراص .. إن المرأة فى كل قرص منها !! »

ـ « لا يوجد خيار آخر .. »

ومرت دقائق ثم سقط القرص على الأرض وقد أدى عمله .. لنتأمل هذا ..

قالت لها :

ـ « هل تشعرين بتحسـ .... »

روووووورررررر !

وتبادلنا النظرات .. كم الساعة الآن ؟ الواحدة ظهرًا .. وهذا الصوت هو إذن صوت الهليكوبتر وقد عادت أخيرًا ! إنها ستهبط فى ساحة القرية فى نفس الموضع السابق ، فهل تخدمنا المفاجأة مرة أخرى ؟

قلت لهم وأنا أنهض :

ـ « سنخرج من هنا ونركض ركضًا نحو الطائرة .. لا وقت للإبطاء . سيحمل كل واحد منا خنجرًا وليبع حياته غالية .. »

قال (براكستون) فى تردد وهو يمسك بخنجره :

- « تبدو مغامرة يائسة .. »

هنا تدخل (بودرجا) قائلاً فى ثقة قلما يتكلم بها :

- « بالعكس .. إن قتلنا الآن وعلى مرأى من طاقم الطائرة ، يعنى أن الطيار سيقلع فورًا ويعود بفصيلة كاملة من الجيش .. فى حين أنهم كانوا يستطيعون قتلنا قبل ذلك بلا شهود ، ويزعمون أننا ضعنا فى السافانا .. لن يؤذونا وأنا من هذا على يقين .. فقط سينتظرون حتى نرحل ثم يفرون إلى (الجابون) »

- « إذن هيا بنا .. »

وانطلقنا راكضين خارجين من المخبأ فالسرداب فالبئر ، ودخلنا إلى القرية ، فى الوقت الذى كان الجميع فيه يحتشدون فى ساحتها يرمقون الطائرة الهابطة .. وكانت الطائرة الآن على ارتفاع عشرة أمتار تهبط بتؤدة كعادتها ، والغبار يتطاير فى كل صوب من حولها ..

لابد أن القوم احتاجوا إلى دقيقة كى يفهموا أننا بينهم ، وأننا نركض نحو الطائرة ..

تصايحوا ونادى بعضهم بعضًا ، لكننا كنا نشبه قذائف المدافع ، وكنا نقطع بسرعة جهنمية الأمتار الباقية التى تفصلنا عن الطائرة ..

وفجأة أمسك أربعة من الأهالى الغاضبين (بودرجا) ، ولوح أحدهم بسيف طويل أقرب إلى (السنجة) التى يستخدمه البلطجية عندنا ، وكاد يهوى به على عنقه ، لكن صيحة آمرة دوت فتصلب الجميع ..

نظرنا إلى مصدر الصيحة فوجدنا (ميرا - جوران) .. واقفة فى كبرياء ، ووجهها مزيج من حزن واشمئزاز وحزم ..

أشارت بيدها إشارة معناها : أطلقوا سراحه .. فأطلق القوم سراح (بودرجا) بعد تردد .. وواصلنا الركض إلى الطائرة التى كانت قد استقرت الآن على الأرض الترابية ..

وثبنا إلى الداخل لا أدرى كيف ، وصحت فى الطيار :

-« ارتفع بربك .. لا وقت للفهم ! »

صدع بأوامرى وبدأت الطائرة ترتفع فى أسرع إقلاع عرفه الطيران فى التاريخ ، وقال الطيار فى استمتاع ، وهو يضغط بأسنانه على لفافة تبغ :

- « يبدو أنهم كانوا يريدون رءوسكم .. هل حطمتم صنمهم أم ماذا ؟ »

- « هذا بالضبط ما حدث !! »

ونظرنا من الطائرة لنرى القوم من أعلى ، كلهم يرمقنا بكراهية يمكن أن تقتلنا لو كان هذا يحدث أحيانًا .. وكانوا يلوحون بالمدى والرماح فى الهواء وهم يطلقون أقذع السباب بلغتهم .. الغوغاء كما ينبغى أن تكون ..

أما (ميرا - جوران) فكانت تنظر لنا فى ثبات .. ثمة ابتسامة عابثة قاسية على شفتيها ونظرة تعد

بالكثير ! وفجأة كورت أناملها إلى شفتيها وأرسلتها مفتوحة فى الهواء بما يعنى أنها ترسل لى قبلة !

كان هذا أفظع وأرهب تهديد تلقيته فى حياتى ..

* * *



١٢ـ أنت أثرت جنونهم !

انتهى عام الأفاعى !

قال لنا (براكستون) بعد ما أجرى اتصالاته ، إن القبيلة قد ارتحلت .. لم يبق منها إلا آثار الأكواخ ، وبقايا أفاع محترقة فى البئر .. لابد أنهم فى (الجابون) الآن ..

هذا طبيعى ، فهم لايريدون أن تجدهم السلطات الكاميرونية وكل هذه الأشياء المروعة فى حوزتهم ..

وقال لى وهو يودعنى :

ـ « كانت أياما طيبة أيها الشاب .. لقد تصرفت ببراعة ، لكنى مازلت اعتقد أنك أخطأت بتدمير الطوطم الخاص بهم .. أنا سأقدم تقريرى إلى المنظمة ، لكن لابد

من أن تتم دراسة هؤلاء القوم أنثروبولوجيًا .. إن الاتصالات بمنظمة (يونسكو) ستجعل القوم هناك يتحمسون للأمر ، وأعتقد أن هناك من سيزورهم فى (الجابون) .. »

ـ « أى أنهم لن يجدوا لحظة سلام واحدة بعد هذا .. »

ـ « هل أنت نادم على هذا ؟ إنهم كابوس حقيقى لكنهم كنز بالنسبة لكل مهتم بدراسة الأديان البدائية أو الأجناس .. ومن الخسارة أن ينقرضوا .. كما أنه من الخسارة أن تنقرض الخراتيت .. »

وودعت الرجل ، شاعرًا بأنه لم يكن شخصًا رديئا .. من النادر هذه الأيام أن تقابل من ليس رديئًا أو فاسدًا حتى النخاع .. صحيح أن غدته الدرقية لا تعمل كما يجب ، لكن من قال إن الغدد الدرقية تقلل من قيمة البشر ؟

★ ★ ★

لم يطلبنى (بارتلييه) ، ولم يطلب تقريرًا .. من الواضح أن مشاغله جمة إلى حد يجعله آخر من يهتم بهذه الأمور .. إن (سافارى) تعمل فى مجال الطب لا دراسة العادات البدائية ، وقد اكتفى بأن عرف أننا قمنا بالمهمة و(واجهنا بعض المتاعب) .. هذا يكفيه تمامًا فى الوقت الحالى ..

لم أزعجه وقررت أن أقضى ليلتى فى سلام .. فى الصباح ـ بعقل صاف ـ سأسأل (برنادت) السؤال ذاته من جديد ..

دخلت غرفتى وأضأت النور ونزعت ثيابى ، ثم ارتديت ثياب النوم ..

لسبب ما حانت منى نظرة إلى الفراش ، فتصلبت ..

على الوسادة كانت أفعى (راسل) .. لم أعد الآن أجد صعوبة فى تمييزها .. كانت هناك تتلوى

ببطء ، ولسانها المشقوق يخرج ويدخل فاها فى جشع ، وبصورة ميكانيكية مخيفة !

ودون أن تفارقها عينى، بحثت عن المكنسة وراء باب الحمام .. هاهى ذى ..

ضربتها ضربة أولى لأسقطها أرضًا ، ثم هويت عليها بعدة ضربات محمومة هستيرية وأنا موشك على البكاء .. فى النهايّة ارتجفت مرة أخيرة ، وسكنت حركتها ..

وقفت أرتجف وأفكر فى معنى هذا الذى حدث ..

(برنادت) !! أين هى ؟

وثبت خارجًا من الغرفة حافى القدمين حاملاً المكنسة ، ووجدتها ـ لحسن الحظ ـ تقف على باب حجرتها ، تولج المفتاح فى القفل وتتثاءب بعد يوم شاق .. فلما رأتنى كورت أنفها بأسلوب (التشنيكة) المعتاد وقالت :

ـ « هاى (علاء) .. هل من .... »

لم أقل شيئًا وفتحت باب الحجرة ومددت يدى بحذر أضىء النور .. لأسباب كهذه يترك كاتب الرعب (ستيفن كينج) نور شقته مضاء وهو بالخارج .. فقط ليتجنب اللحظة الكريهة التى يمد فيها يده فى الظلام لينيره .. عندها يتوقع دائمًا أن تهوى تلك اليد الباردة ذات المخالب على يده !

كانت صرخة (برنادت) هى ما جعلنى أرى قبل أن أرى ..

على وسادتها الوردية الجميلة ، كانت أفعى (راسل) تتمطى ببطء باحثة عن شخص تقتله ..

وكررت السيناريو ذاته ، وبعد قليل وقفنا نرمق الجسد الأسطوانى المتمدد على الأرض .. وكانت (برنادت) تبكى ..

قالت لى :

ـ « ما معنى هذا ؟ »

ـ « هذه رسالة موقعة .. أعتقد أن الغرض ليس قتلنا قدر ما هو ترويعنا .. وإلا ما وضعت الأفعى على الوسادة ، ولوجدناها تحت الفراش أو فى الأحذية .. إن (ميرا) تقول إنها قادرة على الوصول إلى سرير كل منا .. »

ـ « ومعنى هذا ؟ »

قلت فى ضيق :

ـ « لا أدرى .. ثم إن .. رباه ! (بودرجا) !! »

وهرعت إلى الهاتف أطلب (بودرجا) فوجدت أنه ليس فى الوحدة هذه الليلة .. إنه فى داره .. لا بأس .. لا أعتقد أنهم يعرفون داره ، وأنا لست ميالاً إلى افتراض أن لهؤلاء القوم قدرات خارقة للطبيعة .. إنهم مجرد عبدة أفاع ..

ثم إننى تأملت الأفعى المسجاة على الأرض وقلت لها :

ـ « أعتقد أن المدير يجب أن يعرف هذا .. »

★ ★ ★

على عكس ما حسبت ، كان المدير على علم بكل شىء ، وقد قابلنى لحظة دخولى مكتبه بغضبة لابأس بها أبدًا :

ـ « كالعادة أنت تخلق المتاعب من عدم .. أنت قتلت طوطم هؤلاء القوم وحطمت نمطهم الروحى وعاداتهم وتراثهم الدينى .. باختصار قلبت حياتهم رأسًا على عقب .. ألم تعلمك أمك أن تحترم عادات القوم الذين تكون ضيفًا عندهم ؟ »

قلت فى كياسة :

ـ « بلى يا سيدى .. لكن لايتضمن احترام العادات أن أترك طوطمهم يبتلع (برنادت) .. »

قال وهو يبتلع قطعة من البسكويت وجدها هناك :

ـ « تشومب ! لقد جاء (بودرجا) من ساعة وحكى لى كل شىء .. لقد وجد ثعبانين فى داره ! »

ـ « عجبًا .. كنت أحسبهم يتعاملون مع (سافارى) فحسب !! »

ـ « تشومب !! إنهم غاضبون ، وقد صرت أنت ورفاقك الأعداء الأبديين لهم .. كما تعلم الأم عندنا أطفالها أن يكرهوا الشيطان ، لابد أن أجيالاً كاملة عندهم ستتعلم أن تكرهك وتحطمك !! »

ـ « هذا جميل .. من المسلى أن يعرف المرء أن قبيلة كاملة تريد ذبحه .. »

قال وهو يتناول سماعة الهاتف :

ـ « يجب أن أقول إننى عاجز عن حمايتكم . لا أضمن سلامتكم لحظة هنا .. »

قلت فى حيرة :

- « هل وصلت الأمـور إلى هذا الحد من السوء يا سيدى ؟ »

- « أعتقد هذا .. تشومب !! هـذه الأمـور لا يمكن اللهو بها ، وإلى أن يعرف هؤلاء القوم الأثيان السماوية فأنت فى خطر داهم .. لهذا رأيت أن الوقت مناسب للتخلص منكم .. »

- « بالرفت ؟ »

- « لا .. ليس الآن .. إن وحدة (سفارى) فى (كينيا) بحاجة إلى أفراد لمكافحة مرض (كالا آزار) .. (بسـام) صديقك العربى كان هناك ويمكنه أن يحكى لك التفاصيل .. لقد أصدرت أمرًا إداريًا بانتدابك و(برنادت) و(بودرجا) إلـى (كينيا) ! وإلـى أن يتم هـذا خـلال ثلاثـة أيـام أقتـرح أن تفتش حجرتك بعناية ! تشومب !! »

وخرجت من الغرفة مبلبل الفكر ذاهلاً ..

إن التغيير جميل ، وأنـا بحـاجة إليـه .. لكن هذا ليس تغييرًا .. إنه هرب .. نفى .. إبعاد .. أى شـىء إلا التغيير ..

هل حقًا يملك هؤلاء القوم السبل التـى تجعل من فرارى ضرورة ؟ وتذكرت ضحكة (ميرا - جوران) العابثة المتوعدة المهددة ، ونحن نركب الطائرة .. وتذكرت قبلة الموت التى أرسلتها لـى ونحـن نرتفع فى الهواء ..

عندها شعرت بقشعريرة تتمشى فى عروقى ..

ربما كان المدير على حق ..

* * *

انتهى عام الأفاعى ، وكانت (ميرا) تقف وسط قومها وترنو بكراهية إلى الوراء ..

إلى البلد الـذى خدعت فيـه .. والبلـد الـذى تلقت

أنوثتها فيـه إهانة قاسية .. كـان هنـاك مـن أهانـهـا ، وكانت هناك فتـاة فر الوغد لهـا .. وكلاهما سيذوقان العذاب الأليم ..

سيكون عليها الآن - لو أرادت أن تستمر قيادتها - أن تجد طوطمـا جديدا تتمحور حولـه آمـال القبيلـة وأحلامها ..

سيكون عليها أن تشكل شبكة جديدة من الطقـوس والعلاقات والأعراف ..

كيف تنوى أن تفعل هذا ؟

إنها ستفعله حتمًا ، لكن الإجابة عن هذا السـؤال خارج نطاق علمنا وعملنا هنا فى وحدة (سافارى) .

علاء عبد العظيم

أنجاوانديرى

روايات مصرية للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد لكي يظل حيا ولكي يظل طبيبا

عام الأفاعي

يطلقون عليه عام الأفاعي .. لا أدري السبب حقًا لكنهم - على الأرجح - محقون .. إذ كيف يمكن للمرء أن يصف عام الأفاعي إلا بعام الأفاعي ؟

يقولون : إنه كابوس .. لا أدري السبب حقًا ، لكنهم - على الأرجح - محقون .. إذ كيف يمكن للمرء أن يصف الكابوس إلا بأنه كابوس ؟

ينتظرون نهايته .. ومن أدراهم أن له نهاية ما ؟؟

د. أحمد خالد توفيق

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم
الجمجمة